برنامج دبي الدولي للكتابة
Dubai International Program for Writing

ذوات أخرى

بدرية الشامسي

رواية

الفارابي

Qindeel | قنديل

ذواتٌ أُخرى

بدرية الشامسي

ذواتٌ أُخرى

روايـــة

Qindeel | قنديل
للطباعة والنشر والتوزيع
Printing, Publishing, and Distribution

الكتاب: ذوات أخرى **Other Selves**

المؤلف: بدرية الشامسي **Badria Al Shamsi**

صورة الغلاف: نارا مهدي خليل

الناشر: قنديل للطباعة والنشر والتوزيع

ص: ب: 71474 شارع الشيخ زايد

دبي ـ دولة الإمارات العربية المتحدة

البريد الإلكتروني: info@qindeel.ae

الموقع الإلكتروني: www.qindeel.ae

الموزّع: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان

ت: 301461(01) – فاكس: 307775(01)

ص.ب: 11/3181 – الرمز البريدي: 2130 1107

www.dar-alfarabi.com

e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: تشرين الثاني 2015

ISBN: 978-9948-18-890-2 - الإمارات العربية المتحدة

ISBN:978-614-432-441-7 - لبنان

© جميع حقوق النشر محفوظة للناشر 2015

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو نقله على أي نحو، وبأي طريقة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو التسجيل أو خلاف ذلك، إلّا بموافقة الناشر على ذلك كتابة مقدماً.

موافقة «المجلس الوطني للإعلام» بدولة الإمارات العربية المتحدة رقم: (72080) تاريخ (2015/10/07)

أنجزت هذه الرواية بإشراف الروائية نجوى
بركات، في إطار برنامج دبي الدولي للكتابة

عن برنامج دبي الدولي للكتابة

أطلقت مؤسَّسةُ محمد بن راشد آل مكتوم في عام ٢٠١٣ «برنامج دبي الدولي للكتابة» بهدفِ دعمِ المؤلِّفين الإماراتيين والعرب والوصول بهم الى العالميَّة، وتمثِّل هذه المبادرةُ جزءاً من المبادرات التي تطلقها مؤسَّسة محمد بن راشد آل مكتوم تباعاً، ومن شأنِها الارتقاءُ بمستوى المجتمعِ العربيِّ فكريّاً وأدبيّاً.

وقد جاءت هذه الرواية ثمرة ورشة التدريب التي امتدت طيلة عامٍ كاملٍ، حيث استفاد روائيون إماراتيون من التدريب على أساليب الكتابة الروائيَّة الصحيحة، وبتقنية احترافيَّة تُمَكِّنُهم من وضعِ نتاجاتِهم موضِعَ التقديرِ بين مصافّ رواياتٍ متقدِّمةٍ.

ويتضمَّن «برنامج دبي الدولي للكتابة» ثلاث مراحل: الأولى تستهدفُ مِئَةً من الشباب الكُتَّاب والمؤلفين من

مواطني دولة الإمارات العربية المتحدة، والثانية تستهدفُ مجموعةً من الكُتَّاب الشَّبابِ من الإخوة العرب المقيمين على أرض الإمارات، وأخيراً ستستهدفُ المرحلةُ الثالثةُ عمومَ المؤلِّفين الشباب من الإخوةِ العربِ في الوطنِ العربيِّ الكبيرِ.

ولن يقتصرَ دعمُ المؤسَّسةِ على نشرِ المؤلَّفاتِ للأعضاءِ في البرنامجِ، بل يتعدَّاه إلى تقديمِ العونِ اللازمِ للمؤلِّفين؛ ليتجاوزوا النطاقَ المحليَّ وصولاً بهم إلى العالميَّةِ.

جمال بن حويرب

العضو المنتدب

مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم

الإهداء

إلى روح أبي...

إلى والدتي الجميلة

إلى من رفع سقف الأحلام

وإلى هاتين العينين اللتين تقرآن ذوات أخرى.

1

«لا أريد أن أشبهها».!

مسحت خط الكحل الأسود السائل عن الجفن العلوي لعينيها اللوزيتين. تَمرَد الكحل وهي تنهي بتطابق رسم عينيها مع عيني غريمتها للمرة الثانية، فأزالت الكحل نهائياً ووضعت ظل جفون أحادي اللون وكثفت المسكارا على رموشها. نظرت إلى المرآة، «أجل، هذا أفضل».

ارتدت عباءة سوداء أضفت على التيشيرت الأبيض وبنطلون الجينز مظهراً رسمياً ستحتاجه اليوم في المكتب، وضعت أقراطاً فضية تتدلى منها لؤلؤة صغيرة، وخاتماً صغير الحجم، وساعة يد بميناء أبيض، ثم خرجت مسرعة من غرفتها الحديثة الطابع، بأثاثها ومفارشها باللونين الأبيض والرمادي. دقت خطواتها السريعة بكعبها العالي رخام الدرج وهي تنزل إلى الدور الأرضي حيث غرفة الطعام.

سبقت «سلمى» الجميع ذاك الصباح رغم تأخرها في النوم. وقفت بجانب طاولة الطعام، صبت شاياً أحمر، أضافت قطعتين من السكر البني وأخذت رشفة. تناولت زيتونة خضراء، فصدمها مذاق الملح والخل الحامض وإن أعجبها. تناولت حبة ثانية، ثم ثالثة، ثم

سادسة، وهي تتأمل غرفة الطعام التي بدت شرقية أكثر من اللازم، بأثاثها وديكورها. طاولة خشبية ضخمة بلون بني محروق وكراس حريرية فيروزية اللون، ستائر ذات ألوان باهرة عليها أفيال صغيرة تتكرر في أعلاها وأسفلها، لوحات تتحدث عن ملاحم وأساطير، وثريات كريستال أزرق صممت بناء على الطلب. كانت أجواؤها شبيهة بأجواء المطاعم الصينية، فقد ملأت المرايا المكان بعد أن استشارت والدتها خبير «فونج شوي» اقترح وضعها في الغرفة لزيادة البركة والوفرة في المنزل، مما يوحي بأن حجم الغرفة أكبر مما هو، رغم أثاثها الصيني الضخم الذي كان يجعلها تبدو وكأنها قائمة في منزل آخر.

دخلت والدتها تحيّي، ببجامتها الحريرية البيضاء، شعرها المصفف، وخاتمها الأخضر الذي يصعب عدم ملاحظته بين أصابعها التي لا تخبر الناظر إليها عن عمرها الحقيقي. ردت «سلمى» التحية وهي تخطو باتجاهها، ثم قبلتها على خدها مودّعة. «لقد تأخرت، سأعلق في زحمة السير». دعت لها والدتها بالتوفيق وسألتها ماذا تفضل للغداء. «أي شيء دون بهارات، لم تعد معدتي تحتمل»، هتفت، قبل أن تطبق وراءها الباب.

أدارت محرك سيارتها الألمانية البيضاء وهمّت بالانطلاق، لكن أيقونة الوقود أشارت إلى تدني الكمية، وحددت 30 كلم كأقصى مسافة يمكن للسيارة قطعها. مرت بمخيلتها محطات الوقود في طريقها إلى العمل، ثم قررت أن تؤجل الأمر إلى ما بعد انتهاء الدوام. ضغطت على

زر الريموت، ثم خرجت بالسيارة من باب المنزل. كان هناك باص مدرسي يقف على بُعد منزلين، تجاوزته واتجهت إلى شوارع فرعية، متجنّبة زحمة المدارس التي بدأت منذ أسبوع، والتي سوف تصل إلى ذروتها الأسبوع المقبل، مع بدء الدراسة في المدارس الحكومية. دخلت إلى نفق المطار الأزرق، تكرر استنكارها المعتاد لهذا اللون والطراز في مدينتها الحديثة، ثم تنفست الصعداء وهي تدخل الشارع السريع الخالي. ابتسمت وهي تمر أسفل جسر قطعه قطار المترو في اللحظة نفسها.

أشارت ساعة السيارة إلى السابعة، فغيرت المحطة الإذاعية إلى أخرى تصدح بصوت فيروز. تمايلت مع الأغنية، حتى خرجت من الشارع السريع إلى آخر فرعي يكتسي بالخضرة وإشارات المرور. توقفت عند ثلاث منها، عند الأولى أعادت وضع طبقة من أحمر الشفاه، عند الثانية قرأت رسالة نصية من «خالد»، وعند الثالثة شربت من زجاجة المياه المعدنية التي حلّت مكان فنجان القهوة المرافق لرحلة الصبح، منذ أن أخبرها طبيب التغذية أن المزيد من العادات الصحية اليومية سيسرع من نزول الكيلوغرامات الصعبة. بنية العضل لديها ممتازة، كما أظهرت نتائج فحص قياس نسبة العضل والدهن في الجسم. «لديك أقل من كيلوغرامين من الدهن، أكثرها في منطقة البطن». منذ توقفها، منذ عشرة أشهر، عن الذهاب إلى النادي الرياضي، وصحتها تتأثر بجدول أعمالها المزدحم بالعمل والأصدقاء

والعائلة، الذي تبخرت منه الأنشطة الحركية لصالح الوجبات الغذائية المتزايدة. لم تعانِ كثيراً كأخيها مروان من الوزن الزائد، أو كصديقاتها اللائي اضطرت اثنتان منهن إلى اللجوء إلى تحويل المعدة، بعد عقود من محاولات فاشلة لخسارة الوزن. «لن تحتاجي حمية أكثر من شهر، مع عادات صحية جيدة ومزيد من الحركة». هذا حرفياً ما قاله طبيب التغذية قبل نحو ثلاثة أشهر، لكن الكيلوغرامات ما زالت تتأرجح صعوداً وهبوطاً، دون ثبات يذكر.

عرفت سلمى أن عدوّها ليس الكسل، بقدر ما هو الغباء المحيط بها في بيئة عملها. فهذا التوتر الذي تعيشه يومياً ويسيء إلى هرموناتها، هو ما يجعل خسارة الكيلوغرامات القليلة بصعوبة خسارة خمسين كلغ. كانت وظيفتها كرئيس قسم لإدارة الفعاليات المحلية والدولية، توافق تخصّصها وخبراتها، وكانت وظيفتها الثالثة التي لم تكمل بعد فيها السنة الثانية. بعد تولّيها الإدارة، لمس الجميع الفرق، داخل المؤسسة وخارجها. فقد كانت سلمى من الجيل الصاعد الذي لم يستعد له الجيل القديم، ولم يستعد له سوق العمل، ولم يستعد له الرجال. عرفت أنها ستنجح في أي وظيفة أخرى، وأن أياً من العروض التي تنهمر عليها بين وقت وآخر، قد يكون أفضل من الحالي، لكن لسبب لم تعرفه، لم ترغب في التغيير. تتمالك نفسها مع مدير أقل كفاءة وزملاء يلعنون الحظ الذي أتى بهم إلى هذا المكان، هي التي تحب أمزجة الصباح، ويعجبها أن تستيقظ لتذهب إلى مكان أو عمل،

أن تختلط بالآخرين في شارع يسوقهم إلى نهار يعرفونه، ولن يحدث أي جديد فيه.

ألقت نظرة على الساعة، لم يزل أمامها وقت كاف لملء السيارة بالوقود. توقفت عند محطة وطلبت من العامل أن يملأ الخزان. استأذنها العامل الفلبيني بحركة من يديه أن ينظف زجاج السيارة الأمامي، فأشارت أن لا، مبتسمة، ثم فتحت النافذة ونقدته مبلغاً يكفي لشراء عدة وجبات من أحد المطاعم السريعة. شكرها فرحاً. كم تحب رؤية العمال والعاملات صباحاً مبتسمين، إذ يشعرها ذلك بشيء من الفرح.

انتهت تعبئة الخزان، مائة وخمسون، قال لها العامل، فدفعت وانطلقت. قادت سلمى باتجاه مقر عملها القائم في أحد أقدم الأبراج في المدينة، وكان ذات يوم معلماً من أهم المعالم، لكنه فَقَدَ تميزه عندما اختفى بين أبراج شاهقة حجبت عنه الشمس. ركنت سيارتها في الموقف المخصص لها وهو الأبعد عن المصعد، وترجلت حاملة حقيبتها المحدودة النسخ. فجأة، تحولت نظارتها الشمسية لمكثّف للرطوبة فامتنعت عنها الرؤية، خلعتها ومسحت المياه بيديها، ثم أكملت جرياً باتجاه المصعد، هرباً من مسافة طويلة من الحر والرطوبة المزعجة.

2

في المصعد، وقفت سلمى وإلى جانبها امرأة تبعتها، يفوح منها عطر كثيف كأنه لثلاث نساء خليجيات. دخلت ولم تلقِ التحية، فامتعضت سلمى من هذا المزيج المبالغ به صباحاً، الذي سيسبب لها الصداع. وحين تأملتها، بدت قريبة الشبه بامرأة تعرفها. ضغطت سلمى على الطابق الثامن والعشرين، وانشغلت باللعب في هاتفها، وكذلك فعلت امرأة العطر، كانت كلاهما تريدان الخروج سريعاً من هذا المكعب المعدني الصغير، فكانتا، من تحت نظاراتهما الشمسية، تسترقان النظر إلى شاشة المصعد الصغيرة وهي تعرض أرقام الطوابق، رقماً بعد الآخر، آملتين أن تحث نظراتهما المصعد على الإسراع.

خرجت المرأة ذات العطر الخانق قبلها بدورين. غريبة هي هذه العلاقات العابرة في المصاعد، فكّرت سلمى، تفصلك خطوة عن الآخر الذي تتشرب مسامك عطوره وروائحه، وربما دخانه وأمزجته. فإما أن يعطس ناقلاً إليك رشحه وإما أن تدوس سيدة على ذيل عباءتك بكعبها، وإما أن يبكي طفل رضيع مطلقاً ذلك الصوت الذي يجعل مصارينك تريد أن تخرج من أذنيك... وربما طالت العلاقة فاستمرت

ستين أو سبعين دوراً، دون اسم، دون صوت، وربما تخيّلت المصعد وهو يهوي بك، ولا أحد بقربك سوى هذا الآخر، على بعد سنتيمترات، آخر ملمح بشري، آخر لون بشرة، آخر جزيء من بشريتك المحتضرة.

فُتح باب المصعد، فاستقبلتها الإضاءة الصناعية القوية في الممر، وطيف من رائحة معطّر للجو برائحة البرتقال. تك تك تك، صوت الكعب يعلن عن قدومها على الأرضية الغرانيت، رخامية اللون والمظهر. دخلت مكتب الاستقبال، ألقت التحية مبتسمة، التقت جوليان توزع زجاجات المياه المعدنية على المكاتب، فطلبت منها قهوة تركية دون سكر، ثم غيرت رأيها، «أضيفي مكعباً واحداً من السكر الأسمر لو سمحت». ابتسمت جوليان . كم قطعة يجب أن تتخلي عنها لكي تتخلص من أعدائها الخمسة؟

كانت أول من حضر من الإدارة. أغلقت باب مكتبها الذي يشبه المكاتب الأخرى من حوله، أبيض، مع كرسي أسود، هاتف، وجهاز كمبيوتر محمول. كانت زهور الأوركيديا هي الشيء الوحيد الذي يوحي بالحياة. حركت المزهرية قليلاً، أنهت آخر شربة ماء في الزجاجة، وفتحت أخرى وسقت الزهور، هي لا تثق بأشباه المزارعين الذين يعتنون بالنباتات في مكتبها. خلعت حذاءها الأسود ذا الأرضية الحمراء والكعب العالي، وانتعلت آخر دون كعب يذكر.

فتحت البريد الإلكتروني وبدأت بالرد على بعض الرسائل. كان جدولها لليوم حافلاً تتلاصق خلاله الاجتماعات بعضها ببعض

وتتوالى. لم يزل أمامها نصف ساعة قبل الاجتماع الأول. أحضرت جوليان فنجان القهوة. كانت رائحة البنّ وهو يوزع على المكاتب، محفزاً للموظفين على الاستيقاظ. في زيارتها الأولى إلى تركيا حيث علمت للمرة الأولى أن القهوة تقرأ، راحت تسأل العجائز عن معنى كل شكل وتأويله. وحين أتقنتها، لم تدر وهي تقرأ لصديقاتها، مدى الإيمان الواهم الذي كانت تمدهن به بعبثها. وحده غضب والدتها عليها أوقفها ومنعها من الاستمرار. أصلاً هي لم تكن تقرأ لنفسها لأنها لم تكن لتؤمن بشيء يتحكم فيه ثقل البن والجاذبية الأرضية.

اجتماعها الأول كان الأكثر مللاً، مع المدير المالي، ذاك القادم من الأرياف. عليها أن تحثه على حث موظفيه الكسالى على الانتهاء من المناقصات. سيتحجّج بقلة عدد الموظفين، ولن يخطر بباله ألا حاجة به لهدر ساعات عمل تقدر قيمتها بخمسة عشر ألف درهم، لأخذ قرار بشأن مشتريات تقدر قيمتها بأقل من ثلاثة آلاف.

كانت تجد في مسرحية الحرص المبالغ فيه على المال العام، أمراً يدعو للشك لا للاطمئنان. لم يسبق أن أدين شخص لا ينتمي إلى المالية بالاختلاس حسبما يُقال. في كل تلك البنوك والشركات، كان الفاعل دوماً شخصاً يبالغ في الظهور بمظهر الأمين، وحده كان يعرف كيف يماطل في النظام، كيف يغرق الآخرين في تفصيل التفصيل كي لا تُرى سهولة أن يأخذ هو! تظن سلمى أن الماليين مهووسون دوماً بالسرقة، وإلا فلمَ يريد أي عاقل أن يعمل في عدّ النقود، إن لم تكن لديه

نية مبيّتة لسرقتها ذات يوم؟ نمت الابتسامة على ثغرها حتى أصبحت ضحكة صريحة بعد أن بلغت هذه الدرجة من التهكم.

اتصلت صديقتها حنان تستفسر إن كانت ستحضر الغداء وترافقها إلى السينما. اعتذرت سلمى، سيطول اليوم ولديها شعرات بيضاء متناثرة تريد أن تصبغها قبل بدء الأسبوع. كان الحديث عن ضرورة صبغ الشعر كفيلاً بوضع حد لإمكانية الإلحاح عليها لحضور وداعية الأسبوع، كما أطلقت عليها.

جاء أحد موظفي قسم الإعـلام بفاكس اعتذار عن حضور الاحتفال، من إحدى الشخصيات المهمة. غياب اسم بهذا الثقل سيكون ملموساً. لم ترتبك سلمى، ستفكر في شخص آخر. خطرت لها ثلاثة أسماء دفعة واحدة، لكل منها ميزة وعيب. عدم شهرة الأول، منع الثاني من دخول البلد لميوله المعروفة، أما الثالث فكان الأكثر ملاءمة، لولا أخبار عن وعكة صحية ألمت به. أجل، الاختيار الأخير هو الأكثر قدرة على اجتذاب الحضور. ستتصل به. هاتفت مكتبه، فاعتذروا لكثرة مشاغله. تركت بيانات التواصل الخاصة بها. كانت تعلم أنها ستتحدث مع ثلاثة أشخاص، قبل أن تصل إليه شخصياً. كل ما قالته هو أن حدثاً رفيع المستوى، على مستوى الشرق الأوسط، يرغب في استضافته، وأنها ستناقش الجدول شخصياً معه. لن يكون المتحدّث الرئيسي، ولكنه سيكون ضمن مجموعة وسيدير هو الحوار. سيكون أحد المحاضرين من مؤسّسي إحدى أهم الشركات الأمريكية، والآخر

من مؤسّسي الدول الحديثة الذي أعاد بناء بلد بفلسفة ولغة جديدتين. كان أيّ من الاسمين كفيلاً بإحضاره.

لم تكن سلمى من النوع الذي يحاول إثبات ذكائه لأحد. لم يفهم أصدقاؤها انتقالاتها الوظيفية كل عامين، ولا تدفق العروض الوظيفية عليها، ولا كيف كانت تحافظ على جسور الودّ مع من تغادرهم. لم تكن تتعلق بمكان، بقدر تعلقها بأفكارها الداخلية، كما حدث مع عبدالملك، هذا الرجل الذي امتلك احساسها لخمسة أعوام، والذي كان قبلها طفلاً يتأتئ، وأصبح معها الفصيح الذي يحاضر في لقاءات دولية دون أي تعثر. كان رجلاً أعادت هي بحكمة تشكيله، حكمة تحتاج إليها الآن ولا تجدها.

رن هاتفها مجدداً، كانت والدتها المتصلة، لم تردّ عليها. ثم اتصل خالد، فردت سريعاً:

«هلا خالد».

« أين عصفورتي؟»

«عصفورتك تطير إلى اجتماع مع أحد أصدقائك»

«من هو؟»

«سعيد صبيحات».

ضحك خالد بصوت عال، «وهل مازال كما هو؟»، فأجابت «سعيد صبيحات فقط يستطيع أن يكون سعيد صبيحات لأكثر من عمر». «أبلغيه سلامي»، قال.

«ألا أوصل له قبلة نيابة عنك؟ تعرف أنه سيقول أشياء كثيرة لا معنى لها، وستتكون ثلاث إشاعات جديدة عني، قبل أن أخرج من باب المكتب، فهل تريد فعلاً أن أوصل سلامك له؟».

«أنت سيئة الظن به».

«لست كذلك. لكن، لو تعرف كمّ المقالب التي وقعت بها بسبب أذيته الصرفة».

«ألم يحاول أن يستميلك؟»

«هل أنت جاد؟ بوجهه المحقون بلتر من البوتكس، لن يتمكن من فعل أي شيء»

ضحك خالد وعلق، «لا أحد يضحكني بتعليقاته كما تفعلين، متى سأراك؟»

«السبت».

«أحس أنني أعود تلميذاً واللقاء المرتقب يقترب».

«تلميذاً شاطراً كما أتمنى..»

«لا أظن... بعد كل هذا العمر، ما زلت لا أعرف كيف أحضر نفسي للقاء كهذا...»

ارتسمت ابتسامة على وجه سلمى وهي تغلق الهاتف بعد حوارها معه. حان وقت الاجتماع. أعادت انتعال الحذاء ذي الكعب العالي مرة أخرى، وأخذت أجندتها ذات اللون الأحمر القاني، وجهاز الآي باد.

حضرت مبكراً كما اعتادت، ثم تعاقب الحضور من بعدها. اختارت أن تجلس قبالة النافذة، هكذا تقع عيناها على جمال الزرقة، فتتفاديان قبح أحد الوجوه التي ستحضر. بدأ الاجتماع. تغيّب مدير إدارتها كالمعتاد، وأخذت هي بزمام الأمور. غابت عن بعض أجزاء الاجتماع، لاستحضار اجتماعات سابقة سمعت وقالت فيها ما يقال نفسه اليوم. كانت تبحث عما اختلف منذ آخر ثلاثة اجتماعات عقدت لنقاش المواضيع نفسها. لقد وجدته. المختلف هو المشروب الذي طلبته، وربما توقيت الاجتماع. كان المدير أمامها أنحف بعدة كيلوغرامات وبلحية أكثر طولاً. فمنذ أن استشرت الحرب على الإرهاب، والمتأسلمون كما يطلق عليهم والدها، تخف لحاهم وتطول أثوابهم ولا تقصر ألسنتهم. شاهدت زملاءها يخففون لحاهم بالتدريج حتى اختفت. سلمى تكره التطرف على أنواعه، ولكنها تكره ما بعد التطرف أكثر. هذا الذهاب والإياب بين الكفتين، لا يريحها، إذ يصنع مياهاً عميقة تصنع بدورها تيارات غير متوقعة، ولا يراها أحد. فالمتوافقون جداً مع تيار ما، أو الرافضون بحدة لتيار آخر، يزرعون في نفسها الشبهات تجاه ما يعتقدون. لا تعرف سلمى متى بدأت تصنف الآخر هذه التصنيفات، أخافتها فكرة أنها هكذا، ربما باتت تشبههم.

هذا المدير الصبيحات، يقرر أن العروض الثلاثة لا تكفي. تقول هي دون صوت، بالطبع لن تكفي لأن شركة من منحك هذا المنصب ليست ضمنها، استبعدت الشركة لرداءة العرض وتواضع خبرتها.

كانت تدرك أنها ستساوم على عرضهم، وأن المدير العام سيغضب منها لاتخاذها القرار، لذا قررت أن تستبق الأمور بطلب نسخة عن رخصة الشركة. تفاجأت باسم المدير المالي وأحد أعضاء مجلس الإدارة، إنهما يتناصفان ملكية الشركة، شيء لم يكن يعرف كلاهما أنها ستعرفه، وهي لم ترغب أصلاً بمعرفته.

قال سعيد: مش حوافق على ثلاثة عروض فقط، يجب أن تكون لدينا خيارات أكثر، منتدى بهذا الحجم، يجب أن نختار له أفضل الأفضل.

قالت هي: أتفق معك، للأسف فإن مقدمي العطاءات الجيدة، لم يكونوا كثراً. كانت هنالك عروض أخرى استبعدتها اللجنة المنظمة بسبب قلة الخبرة، أو لتغاضيها عن توفير مستوى الخدمات المطلوبة.

قال سعيد: نرجع نشوف العطاءات دي تاني يا بنتي، انت عارفه نحن لازم نتحرى الشفافية التامة.

قالت هي: أنا معك في هذه الخطوة، مش عاوزه أتكلبش في يوم وأنت أكثر اطلاعاً مني على شروط المناقصات.

قال سعيد: نحدد اجتماع تاني مع اللجنة.

قالت هي: اتفقوا وسأحضر.

أضاءت شاشة هاتفها باسم ماما، تجاهلت المكالمة وأكملت الاجتماع.

قال سعيد: أنا بنفسي حدرس الموضوع، وأحضر للاجتماع.

قالت هي: هناك عطاء لا أعرف كثيراً عن تفاصيله. قال لي المدير القانوني لقد تم استبعاده لوجود تضارب مصالح مع مجلس الإدارة، شيء عن عدم الإفصاح المسبق. كلم الأستاذ محمد، جميع الأوراق لديه.

خرجت سلمى من الاجتماع في خط مستقيم باتجاه مكتبها. وعندما وصلت إلى الباب، خطرت لها فكرة المرور بميثاء، في إدارة الموارد البشرية. كانتا من العمر نفسه وتجمعهما علاقة مودة. سلّمت وجلست. بدأ الحديث المتكرر، ميثاء تشتكي من خيانة جديدة لزوجها، وسلمى تتعاطف معها وتقول لها بأنه لا يستحقها. أدركت سلمى أن الخيانة لها حضور قوي في تاريخ أسرة ميثاء، وأن هناك شبه تقبّل للاستمرار في زواج يتّسم بالعواصف المستمرة. بدأ تقطيعها البسكويت وألواح الشوكولا الصغيرة بتخفيف توتر الاجتماع السابق. لم تعد سلمى تنصح زميلتها بالتخلي عن زوجها، حتى بعد مرور أربع سنوات دون وجود أبناء، فميثاء تحب حكايتها مع زوجها. صحيح أن وزنها ازداد نحو عشرين كيلوغراماً، وأنها أصبحت تتناول أدوية للضغط والكوليسترول، لكنها تحبه وسعيدة بتعريفها الشخصي والمختلف للسعادة. تركت سلمى مكتب ميثاء بعد تناول الكثير من الشوكولا والبسكويت المملح.

دخلت مكتبها، جلست على المقعد، متململة. أشعلت شمعة برائحة النعناع، وأحست بالفكرة التي تسيطر عليها حين يتزايد توترها.

رأت عدة أشخاص في هيئة شخصيات كرتونية زرقـاء، يلتقطهم المشعوذ البغيض شرشبيل كي يطعم قطه. ألقت النظر على ملاحظاتها في الدفتر الأحمر، فرأت العديد من الزهور التي لونتها بالقلم الأسود. لم تكتب كثيراً عن توصيات الاجتماع، لكنها كتبت جدول عملها لليوم وللأسبوع المقبل.

جاءتها رئيسة القسم الثاني في الإدارة، تشكو بأن المدير سيخرج في إجازة ولم يوقع إجازتها بعد. ردت دون تفكير، «سأوقعها أنا، بالطبع سيخرج في إجازة، ملائم جداً توقيت الهروب، لماذا يهرب إن كان لا يحضر أصلاً».

انتبهت إلى تسرّعها في الحديث عنه أمام منافسة غير شريفة، وتفاجأت بحضور صحفي دون موعد، يقاطع حديثهما وينتظر منها خبراً يملأ به الفراغ. أرادت أن تسأله من أين تخيلت سلطتك على جدولي أيها المتطفل؟، أطالت النظر إلى وجهه، كان مرتبكاً حد الشفقة، فوافقت على لقاء قصير وتصريح مقتضب عن الاستعدادات للحدث. امتد الاجتماع من غير موعد، من ربع ساعة إلى نصفها.

انتبهت إلى شاشة الهاتف المضيئة واسم مروان عليها. ردت «هلا مروان».

«هلا حبيبتي، لماذا لم تردي على مكالمات ماما؟»

«وهل أنت أوبريتر أو سكرتير الماما؟ كنت في اجتماع، شو أخبارك؟»

«الحمد لله بخير، لدي خبر أريد أن أخبرك إياه»

«لديك ثلاثون ثانية قبل أن أنشغل»

«بهجت حامل».

«مبروك، ألف ألف مبروك»، تصرّفت وكأن الخبر مفاجئ لها، بعد أن شكّت في حمل بهجت في آخر لقاء جمعهما. «أنا سأسميه».

سحب منها بساط التسمية. «أرجوك لا أريد أن ينتهي اسم طفلي إلى رواية من رواياتك، أعرف أسماءك جميعاً ولا أحبها..»

«حسنا، ليأت الطفل أولاً ونسميه لاحقاً»

«لاحظي أنني أنا والده..»

«ما زلت أخي الصغير، شئت أم أبيت، لذا سأسميه وسنرى.»

كان يعرف أنها قادرة على تغيير اسم مولوده إن أرادت، فبهجت كاللعبة في يديها، ووالدته تصير أحياناً كذلك. رجاها أن تقبل بهجت، الاسم التي رأته سلمى غريباً جداً. لعبت سلمى معه دور الأم، رغم أن ما يفصلهما كان عامين وبضعة أشهر. لم تكوّن سلمى رأياً حازماً ببهجت، في لقائهما الأول، لكنها كوّنته عن والدتها. سألته «ألا تريد جدة عربية لأبنائك؟»، سألته بلا مواربة. أجاب مروان «أنا لا أفكر مثلك، أريد زواجاً ناجحاً، ثم إنني أحبها».

عادت إلى اللحظة، «بالبركة يا رب، سأذهب لحضور اجتماع الآن بابا مومو»، فكرر مروان «كلمي ماما».

أغلقت الهاتف، وتوجهت إلى قسم التصاميم الإبداعية لحضور

الاجتماع المستفز الثاني. تمادى اليوم في ضغطه على أعصابها. لماذا يكون اليوم الأخير من الأسبوع بهذا الازدحام؟ لماذا يصر على تعقيد حياتها وهي توشك على الخوض في نقاش أجّلته طويلاً. تريد أن تعد نفسها لمواجهة محتومة ونقاش لا تفوز به.

3

دخلت سلمى غرفة الاجتماعات الملاصقة للإدارة، من أجل اجتماعها مع ثريا، مديرة قسم التصاميم الإبداعية. لطالما حاولت سلمى جاهدة أن تستسيغ وجودها في المؤسسة، مرددة أنها لا بد أنها فعلت على الأقل شيئاً واحداً طيباً كي ترزق هذه الوظيفة التي تعجز عن النجاح في تأدية أيّ من مهامها.

كانت ثريا ذات الشعر الأشقر والملامح الإفريقية بلون أبنوسي وبشرة تُحسد عليها، تتعمّد باستمرار كشف نهديها. فإن لم يكن قميصها شفافاً، تكون أزراره مفتوحة للحد الأقصى بحيث يبذل الموظفون جهداً هائلاً للتركيز على وجهها، وللتغاضي عمّا يظهره عريها الذي لا يتواءم ومكان العمل. كانوا جميعاً على علم بأمر الحلقة التي وضعتها في سرّتها، والتي تتعمد كشفها بارتداء بنطلون واطئ الخصر، ما جعل الكثيرين يتهامسون بشأنها، مطلقين عليها ألقاباً ونكات لم تضحك يوماً سلمى التي لم تكن تفهم سبب تعاطفها مع ثريا، هي التي لم تسلم قط من غيرتها وشرها. «لا نعرف أي طفولة معذبة عاشتها، كي تختار هذا الطريق المجحف في حق الروح»، كانت تردد، وكان تعاطفها يشمل

الطفل الجميل الذي يشبه المستشار، وزوجها الذي يحمل اسم نبي. فثريا الأربعينية العقد متزوجة، تأتي بعباءة تخلعها مباشرة بعد دخولها المكتب، وقد باغتها البعض في أوضاع مع المستشار يصعب تبريرها، حتى أن أحد الموظفين أقسم أنه رأى آثار كريم الأساس وحمرة شفاهها على ياقة المستشار.

ولم تكن حياة ثريا الخاصة مهمة بحد ذاتها، وإنما عدم قدرتها على تأدية أبسط المهام، مقاطعتها المستمرة لحديث الآخرين، تدخلها في ما لا يعنيها، وفحيحها المستمر على الهاتف، جعلت العديدين يشتكون منها. لكن المدير التنفيذي كان أضعف من أن يوجه انتقاداً إلى صديقة صديقه المستشار، إلى أن اشتكى موظف جديد من تحرّشها به. كانت المرة الأولى التي يكشف رجل عن تعرّضه للتحرّش، فما كان من المدير التنفيذي إلا أن قال: «من الصعب أن تثبت التحرش»، مذكّراً إياه بقصة النبي يوسف. وحين عرض عليه الموظف الرسائل النصية الهاتفية المتّسمة بالمباشرة، امتقع وجه المدير وتغيّر لونه، ثم قال منفعلاً: هل تريد أن تفضحها وهي زوجه وأم لطفل؟ استر عليها، لديك أخوات لا؟ لم يعرف الموظف الشاب بماذا يردّ وهو يحس بأن آدميته تمتهن تحت ستار العيب. عرف أن لا فائدة من المحاولة، فاستقال.

دخلت ثريا. فتحات القميص الفسفوري الأربع مفتوحة، والوشم المؤقت جليّ عند الصدر. بعثت السكرتيرة ميعاد إلى سلمى رسالة

نصية: «لاحظي المتصابية، تضع وشماً، كأن قرف الصدر ورائحة السجائر لن يكفيا لهذا الاجتماع». ابتسمت سلمى لميعاد دون تعليق، والتفتت إلى جاسم، الموظف الصامد حتى الآن. بدأت بشكر الحضور واستعراض آخر المنجزات وجدول الأعمال، رن هاتف ثريا، فخرجت من القاعة لتردّ، وعادت بعد أقل من دقيقة. «المدير يطلبني لاجتماع حالاً». سلوك معتاد ومتوقع لم يفاجئ أحداً. استأنفت سلمى الحديث، «لا يوجد مبرر لتأخير الـ Production، الشركة تدّعي تغييراً في الشعار»، فقالت ميعاد: «لقد غيرت ثريا لون الشعار إلى الأحمر». «الأحمر لن يتماشى مع الشعار المعتمد أو الهوية المؤسسية، إنه شعار وليس قميصاً»، علّقت سلمى، فضحك الحاضرون وهم يكملون الجملة دون صوت. تابعت سلمى، «جاسم، لديك حتى الثانية عشرة من يوم الأحد، لتطلعني على موافقة خطية من اللجنة المنظّمة، أو نعود إلى المعتمد سلفاً، ولديك حتى ساعتين من الآن لتوثيق محضر الاجتماع واعتماده من قبلي».

حين خرجت من الاجتماع، كان الإحباط واضحاً على وجهها. شعرت أنها تحتاج صلاة كي تهدأ، وكي تصبر على الغباء الذي يستمر في رفع مستواه اليوم إلى درجة قد يبلغ معها أعلى معيارها. «معيار ثريا للغباء»، كانت ميثاء تقول عن المعيار الذي اخترعته سلمى للغباء والذي تصنف بحسبه القرارات، حتى لا تصنف زملاءها ومرؤوسيها.

ذهبت سلمى للوضوء، صلت ركعتين في وقت لا تعرف إن كان مكروهاً أم ملائماً للصلاة. تساءلت إن كان هناك صلاة للصبر، وفكرت أن توجه السؤال إلى خالد، فهو موسوعة دينية رغم عدم التزامه. كان من القارئين في كل مجال، وسلمى تكرر عليه من حين لآخر: صدقني، سأتزوجك فقط لأنك تشبه فتى أحلامي الأول، جوجل الذي يعرف كل شيء.

لم يكن خالد يعرف كل شيء، وبأنها ما زالت، بعد سنوات الفراق، تبلغ درجة الحزن القصوى في عيد ميلاد عبدالملك، فتخرج من قلبها رغبة عميقة للتواصل معه، وكي تغني له أغنية مكررة، لطالما قمعت رغباتها معه، حتى في المحافل الرسمية، كانا يتجنبان التواجد إلى الطاولة نفسها. لم يحتفل عبد الملك بميلاده قبل أن يلتقيها، ولم يعرف عن الأبراج شيئاً قبل أن تقص عليه صفات برجه. كان الفلك سبيلها لإيجاد الطمأنينة، للإيمان بتباشير مستقبل سعيد، تروح إليه، ولا تصدقه، يفعل فيها فعل المخدر، للحظات، قبل أن تستفيق فيها هواجسها والمخاوف.

وجدت سلمى نفسها في المكتب، لا تعرف كيف ومتى انتقلت من غرفة الصلاة إليه، تساقط الوعي منها على الطريق. منذ متى أصبح عبدالملك يطفو في كل تداعٍ لخالد؟ ذهلت من اكتشافها هذا، لا تريد أن تختلط مشاعرها تجاه الاثنين، فكيف لزمن ماض وشخص لم تعد تعرف عنه شيئاً، أن يتوازيا مع خالد. قرصها قلبها، قرصتها معدتها،

تناولت الهاتف، «ميعاد، اطلبي لي بيتزا بالمأكولات البحرية، بعجينة رقيقة».

بسرعة، حضرت البيتزا التي كانت تكفي أربعة أشخاص. كانت الساعة الثالثة والنصف وقد غادر الموظفون إلى منازلهم. ظلت تراجع عقوداً، وكلمات الافتتاح والربط، وحين اكتشفت أن ما تبقى لها مراجعته، ما زال كثيراً، اتصلت بوالدتها.

- «ماما ما زلت في المكتب، سأتأخر».
- «لكنك لم تأكلي شيئاً منذ الأمس، لا أريد أن يغمى عليك ثانية».
- «أنا بخير، وآكل الآن قطعة بيتزا».

تابعتا حوارهما بالإنكليزية، فهي اللغة التي تسعفهما حين يتوتّر الجو بينهما. قالت الأم إن الخالة مريم ستأتي للزيارة وعلى سلمى أن تكون في المنزل قبل السابعة مساء، وقالت سلمى إنها لن تصل قبل الثامنة لأنها على موعد مع الكوافيرة. أنهت المكالمة وواصلت العمل لساعة أخرى، أخرجت مرآة من حقيبة يدها، نظرت إلى الشعر الأبيض المتناثر، لم يكن في رأسها أي شعرة بيضاء قبل عهدها بعبد الملك. بعد الفراق الأول، تناثر بعضها، وبعد فراقهما الثاني تضاعف العدد، وتضاعف التضاعف حين قررا أن العمر لا يحتمل مهازل انتظارات عربية. اتفقا أنهما وصلا إلى مفترق الطريق في حلم طال، وحرق سنوات من عمره وعمرها وعمر أطفال مفترضين أطلقا أسماءهم على

شوارع المدينة. مع خالد، ليس هناك انتظار. هناك حب، ونية زواج معلنة منذ البداية. كلاهما صريح مع الآخر، هو يعرف بأنه يحبها ويريد أن يكمل مشوار الحياة وهي الى جانبه، وهي سعيدة مع رجل يفهمها ويحبها.

أطفأت جهاز اللاب توب، وهي تشعر ببعض الرضا لأنها أنجزت مخططها لليوم. نزلت إلى المواقف، كانت خالية إلا من سيارتها، صورت المكان وبعثت بالصورة إلى ميثاء وكتبت أدناها، «ألم يحن الوقت لترقيتي، ها أنا أغلق المؤسسة»، وغادرت متوجهة إلى الصالون.

كانت سلمى تذهب إلى هذا الصالون لا لتميزه، بل لقربه من البيت. صحيح أنه يوفر خدمات جيدة، لكن قربه جعله المفضل لديها. استقبلتها الموظفات بحفاوة، طلبت من الكوافيرة المغربية، أم حميد، أن تصبغ الجذور باللون السابق نفسه. حاولت أم حميد أن تقنعها بالتغيير، لكن سلمى تمسكت برأيها. استغرق الصبغ وتصفيف الشعر وطلاء الأظافر ساعتين. شعرت بالنعاس، منحت أم حميد مبلغاً، فحاسبتها الأخيرة وغادرت هي إلى البيت.

كانت خالوه مريم كما تناديها، صديقة مقربة لوالدتها، ولكن سلمى استثقلت السهر ليلة الخميس وهي متعبة، لذا فقد نوت الخلود إلى النوم. إلا أنها، وبعد أن سلمت على الضيفة وتناولت معها العشاء، نسيت رغبتها في النوم. انتبهت متأخرة لثلاث مكالمات ورسالة من خالد. كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل بقليل، فاستأذنت بحجة

سطوة النوم. ودّعتها مريم وهي تلهج بالدعاء لها بالزوج والذرية الصالحة. كان دعاؤها مبطناً، فرغبتها في تزويج سلمى من ابنها سلطان معلنة، لكن الأمنية لم تجد صدى طيباً بعد.

ما إن أوصدت سلمى باب غرفتها، حتى هاتفت خالد. لم يجب، فأرسلت تعتذر عن عدم ردها عليه. أرسل هو الآخر يعتذر لانشغاله بضيوف. حسناً، تصبح على خير حبيبي، ردت عليه. ظلت المقارنة بين خالد وعبد الملك تتسلل إليها. لم يكن عبد الملك ليلح ويكرر اتصاله. أحبت قلق خالد، حنون بطريقته، يسأل عن أصغر الأشياء في يومها، بينما كانت الغيرة موضع نقاش دائم مع عبد الملك، كان يتمسح بثوب الدين كي تتحجب، القضية التي كانت تعنيه كثيراً، رغم تقصيره في أداء صلاته.

4

استيقظت مبكراً يوم الجمعة بسبب منبه الهاتف الذي نسيت إطفاءه، عدلت درجة حرارة التكييف بعد أن ضايقتها برودته، أغمضت عينيها في استسلام لرائحة صبغة الشعر التي لا تزال طازجة. ظلت على هذا الوضع لبعض الوقت. تناولت الهاتف فوجدت رسائل من حنان وميثاء وخالد ومروان وزوجته، علقت يبدو أن الجميع سهران أمس. انتعلت خفاً واستعدت للصلاة. دعت طويلاً في السجود أن ييسر الله خطبتها وزواجها من خالد، نزلت إلى الدور الأرضي، كان الجميع نائماً حتى المساعدات المنزليات، صبت كأس ماء، فتحت التلفاز، كان وقت إعادة برامج لا تتابعها، تناولت إحدى المجلات الأجنبية التي تهواها والدتها، تصفحتها، شاهدت إعلاناً لقطعة مجوهرات أعجبتها كهدية لبهجت، تذكرت أنها لم تهنىء بهجت بعد، فبعثت لها بتهنئة، أغلقت التلفاز وصعدت إلى غرفتها، عادت إلى السرير تحاول النوم، أرادت أن تؤجل بداية اليوم الذي سينتهي نهاية غير عادية فغفت نحو ساعتين، قبل أن تفتح عينيها بتكاسل، نظرت إلى هاتفها، كان خالد قد أرسل فيلماً مضحكاً، فكتبت إليه، يبدو أنني سأتزوج مهرجاً. أرسلت تخبره عن حلم كان فيه يزرع زهوراً أمام منزلهم. تفاءلت به، بالرغم من

سخريتها المستمرة من برامج تفسير الأحلام التي تملأ القنوات. لابد أنه بشارة خير فلا توحي النباتات والزهور إلا بالخير.. تأملت الغرفة البيضاء أحادية اللون وهي تقرأ بعض الأدعية.

نهض الجميع متأخراً كالمعتاد، طرقت المساعدة جين باب الغرفة على سلمى، أخبرتها أن والديها بانتظارها لتناول الفطور، غيرت ملابسها، وهبطت إلى غرفة الطعام، بدأ الحديث المعتاد عن عمل الأب وعمل سلمى وآخر الأخبار، ووالدتها تمسك بجريدة Khaleej Times، ووالدها بالشرق الأوسط، وهي تتصفح الآيباد لقراءة الجرائد.

اقترح والدها عليها السفر من أجل إجراء فحوصات طبية لها، فإغماؤها المتكرر أثار قلقه، لكنها طمأنته في المرتين لم أتناول أي طعام لفترة طويلة، الآن أنا أكثر حرصاً. شَكَت والدتها له بأنها خرجت بالأمس دون تناول الفطور فدافعت عن نفسها أنها أكلت لوح شوكولا وبسكويت وبيتزا في المكتب. نظر إليها والدها وقال بسخرية وهل أنت طفلة كي يكون هذا طعامك؟، لم تجب على تعليق والدها وأمسكت خصلة من شعرها بدأت تلفها على إصبعها، غيرت الموضوع وهي تسأله ماذا ستسمي حفيدك الأول؟ قال لها لماذا أسميه أنا؟ مروان وبهجت سيختاران اسماً جميلاً بالتأكيد، سألته ألن تقترح اسماً، فهم الأب ما كانت ابنته ترمي، قال: يبدو أن لديك اسماً تريدين اقتراحه للحفيد، قالت له ربما سفيان، ضحكت الأم وهي تعلق أنت وعشق الأسماء الأموية، قالت سلمى، مروان أيضاً اسم أموي، شيء مثل

الوليد بن مروان أو سفيان سيكون له وقع جميل. سأل الأب متهكماً: وإلى أي عصر ينتمي اسم سلمى؟ فردت عليه وهي عابسة لا أريد أن أذكرك بأنك سميتني على فيلم.. أنتما تحضران فيلماً وأنا أدفع الثمن طوال العمر.. قال لها والدها ما باله اسمك، الفيلم ذكرنا باسم قريبة لنا، لا أكثر، اسمك جميل.. سألته هل ستكون موجوداً على العشاء، فقال الأب ربما، لست متأكداً، فسألت والدتها: هل سيأتي مروان إلى منزل جدتي اليوم؟

قالت الأم لا أظن فبهجت لوت كاحلها بالأمس، حامل ولا تزال تذهب لصفوف اليوغا، بنات هذا الزمن.

كان اجتماع العائلة يوم الجمعة على الغداء هو اللقاء الاجتماعي الوحيد الذي لا تتحمس له أم سلمى، فالجدة القروية العنيدة لم تغفر لابنها زواجه من بنت الغرابة كما أسمتها، وبدت أولى إشارات اللطف بين الغريبة والعمة بعد أن أكملت سلمى عاماً ونصف العام، إذ كانت الطفلة تمسك بطرف شيلة جدتها البيضاء وتتبعها كفرخ دجاجة من مكان لآخر، ذوبت سلمى قلب الجدة التي لم تلغي الحواجز مع الأحفاد قبلها، هي التي رزقت خمسة ذكور، رأت فيها الابنة التي لم تحظ بها، وقامت سلمى بدور الابنة المتمناة وهي تصحبها إلى المواعيد الطبية، وتبيت معها في المشفى. رأت والدة سلمى الأمور من منظور مختلف، أن ابنتها تزداد شبهاً بالعمه، وأنها تأخذها منها بشكل غير معلن، رغم أنها وافقت على هذا الالتصاق أحياناً حين تفتخر الجدة بابني الغريبة اللذين أنهيا الماجستير، وتعيب على بقية الأحفاد الذين اكتفوا بالثانوية.

5

وصل والد سلمى في سيارته، وابنته في سيارتها، والأم مع السائق في أخرى، ازدحم المنزل بالمركبات التي ماثلت عدد الزوار، ضج المنزل بالحياة، وهو يتحول إلى حضانة. كان البيت شعبياً قديماً، رفضت الجدة المستقلة، تركه للعيش مع الأبناء رغم تقدمها في السن، فما كان من أبي سلمى إلا أن أعاد تخطيطه وترميمه، وحول الغرف الخالية إلى صالات مفتوحة بعضها على بعض، وبنى مجلساً يتسع لامتداد العائلة والأنساب، كما أعاد تأثيث المنزل بفرش مريح اختارته سلمى بألوان تحتمل الأطفال الذين يملؤون المنزل. بتدفق الرجال القادمين من الصلاة انفصل الزوار إلى مجتمعين، رجالي في المجلس الكبير، ومجتمع نسائي في الصالات. جرؤت سلمى على الحراك بين الضفتين بلا قيود، وأيدتها الجدة لأنها كبرت في عصر ما قبل الحاجز بين الرجال والنساء، لم تجرؤ أي من الفتيات على محاكاتها، بشعرها الغجري وبحد أدنى من الزينة، أثارت حنق فتيات العائلة خاصة المتزوجات حديثاً، تماماً كما كان جمال والدتها مازال يثير حنق زوجات الأعمام، ويزكيه البون بين أناقتها وبين اللائي كبرن أكثر من

أعمارهن، وظلت الغريبة جميلة كالممثلات. وحدها ابنة عمها محمد. العنود صاحبة العيون الخضر ورثتها من جدة من أهل الجبال يقال أن أجدادهم تزاوجوا مع البرتغاليين أيام الاحتلال، تجرأت على انتقادها، لطالما لامت العنود سلمى على عدم زواجها بمروان الذي كان حلم حياتها، استلطفها مروان في مراهقته، لكن لم يتحدث أحد عن خطبة، كان الجميع يعتقد أن بيت أبو مروان والغرابة عالم مختلف عنهم، ابناه في مدارس أجنبية، يتحدثان لغات عدة، ويسافران وحدهما. اكتفت العنود كغيرها بالثانوية وجلست في البيت بانتظار من لم يفكر يوماً فيها كزوجة. تطور لديها مع الوقت إيمان بأن عيناً أصابتها أو أحداً سحرها وهي تحضر زواجات بنات العائلة اللاتي تفوقهن جمالاً، ولا يتقدم لخطبتها أحد، لم تحضر زفاف مروان الذي أخبروها أنه كان أسطورياً في فخامته، وأطلقت لقب الساحرة على زوجته بهجت الفتاة الدائمة الابتسام.

قالت العنود: «يدوه، قولي لسلمى تتستر الستر زين، دوم كاشفه رأسها، ما تخاف من العذاب، كل شعرة بجمرة»، لكن الجدة ردت على العنود أن سلمى صغيرة ونيتها طيبة والأعمال بالنيات. صححت العنود للجدة، بأن سلمى أكبر منها سناً وأن نيتها طيبه لكنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر. لم يعجب الجدة كلام العنود، فدافعت بأن سلمى تربية يديها ولا تفعل المنكر، ولها عذر فأمها أجنبية والأجنبي ما عليه حرج.

عادت سلمى من المجلس بعد أن سلمت على الأعمام والأقارب، لم تعرف بالحوار بين جدتها والعنود، انهالت على الجدة قُبلاً وهي تقول لها علني أفديك يا أمي، خليني أصبغ شعرك مثل شعري. والجدة تضحك وتجيبها أنا محنية شعري سنة النبي، فقالت سلمى أمي شفت شنطة ديور صغيرة وخفيفة عجبتني منزلين أزرق وبنفسجي، وفتحت هاتفها تعرض صور الحقائب على الجدة التي ردت أن لديها عدة حقائب زرقاء وأن المنفسجي ليس لعمرها.. قاطعت العنود بجلافة تصحح للجدة بنفسجي يدوه، مب منفسجي، وتضيف أنا ما أشوفك شليتي الشنطة الزرقاء إلي جبتها لك، ردت الجدة أن الحقيبة التي أحضرتها ثقيلة، وبأن اللواتي تحضرهن سلمى خفيفات الوزن وصغيرات وماركة. لم تعرف معنى كلمة ماركة بالتحديد، لكنه شيء يدل على ارتفاع السعر. احتقنت العنود ولمست سلمى بالتغير على وجهها، لم تفهم سببه، ومر الوقت ككل أسبوع، بين هذر وجد حتى صلاة المغرب، بعدها بدأ الجمع بالمغادرة.

ذهبت سلمى إلى مركز تسوق من أجل اللقاء بحنان، تريد أن تخبرها عن التوتر الذي تعيش فيه، وأنها تريده أن ينتهي، طلبت من النادل عصيراً مثلجاً، وكعكة بالتمر وطلبت حنان لاتيه. قالت لها حنان، إنها تبالغ في القلق والتفكير، فكل البيوت تحدث فيها مثل هذه المواجهات وتنتهي، لست أول فتاة تتزوج برجل أكبر منها. قالت سلمى: إنك لا تعرفين أمي ومثالياتها وإلا عرفت ما الذي ينتظرني

معها، أحس أني أكسر قلبها، اليوم سأفاتح مروان، أحتاج إلى حليف، لن أستطيع مواجهة الجميع مرة واحدة. قالت حنان المهم هو أن تكوني سعيدة، فهل أنت متأكدة أنك ستكونين سعيدة مع خالد. أكدت لها بأنها ستكون سعيدة، فهي وخالد متفاهمان بدرجة كبيرة. قالت لها حنان مطمئنة إياها أن لديها إحساساً بأن الموقف سيمر بسلاسة، ردت أتمنى هذا، لم تسأل عن مصدر شعور حنان، أرادت فقط أن تسمع شيئاً يريحها.

6

توجهت سلمى إلى المنزل حيث كان مروان بانتظارها. باركت له ثانية، وسألته عن سبب عدم حضوره إلى بيت الجدة. قال مروان متعذراً تعرفين منذ عرفت بهجت بحملها وهي تتدلل ليل نهار، لا أعرف لم تظن أن الحمل مرض، ولا تسمح لي بتركها. قالت له بصوت جاد مروان، تذكر وقفتي معك في خطبتك وزواجك، الآن أحتاج إلى أن تقف معي الوقفة نفسها. رد مروان بهدوء، لم ديباجة المصالح هذه؟ أخبريني من هو؟ فقالت سلمى: اسمه خالد، رجل أعمال، خالد الجارف ربما تعرفه، رد عليها بأن اسمه مألوف وربما التقاه. سأل مروان عن وضعه الاجتماعي، وعن عمره، فأجابته سلمى بأنه مطلق، أب لولدين، وعمره خمسون، صُعق مروان ورد عليها لابد أنك تمزحين! ستصاب أمي بأزمة قلبية على يديك. قالت له: أنت أصغر مني وبدأت تكون أسرتك، من حقي أن أكون أسرتي أنا أيضاً. قال لها لا يوجد مبرر لهذا الانتحار الاجتماعي، تقدم لك العديد، وما زال سلطان ابن خالتي مريم يتمنى أن تعيدي النظر في رفضك. قالت له أنت تعرف أن المشاعر لا يستطيع أحد أن يفتي فيها، ولم أنت مهتم بردة فعل أمي أكثر

من اهتمامك بمشاعري أنا صاحبة الشأن، قال لها مروان، لا أتصور رجلاً في الخمسين يريد أن يصبح أباً، بلى يريد أن يصبح أباً ثانية، مروان: فقدت عقلك أم أنها رد فعل.. نكأ جرحاً بجملته لم يلتئم بعد، امتلأت عيناها بدموع مسحتها سريعاً، احتضنها، أريد أن أراك سعيدة، أريد طفلاً يشبهك يناديني خالي ويلعب مع أطفالي، لكن مع الشخص الصح، لا تفرق بينكم عشرون سنة من الحياة وطفلان. ابتعدت عنه وهي تقول فكر في الموضوع، سأتفهم إن لم تبارك زواجي، لكن على الأقل لا تعارضه.. تعرف أننا لا نتفق مع السائد في المجتمع مروان، رد عليها هذه أفكارك أنت فقط، أنت تُقصين نفسك عن الآخرين.

سلمى: «أتظن هذا؟ فلماذا تتنصل من اجتماع العائلة الأسبوعي؟ ألا تسمع ما أسمع هناك».

مروان: «لم أعرف أنك تتأثرين برأي بنات العائلة، تعرفين أن عائلة أبي منغلقة».

مروان: «لن أستطيع أن أواجه أمي وأبي وأنت لست بجانبي أتوقع حرباً من أمي، لكن ليس منك».

مروان: «لا أستطيع أن أوافقك على هذا القرار، هذا زواج ظالم لك وإن أردته».

غادر سريعاً، لم يحتمل رؤية أنفها المحمر وعينيها المحتقنتين بالدمع. أحست سلمى بأن جزءاً من الجبل الذي تحمله، تساقط عن ظهرها، شعرت أنها أكثر خفة بعد حوارها مع مروان، اتصلت بخالد،

أخبرته بردة فعل مروان، لم يعرف خالد كيف يهدئ بكاءها أو يتعامل معه كانت المرة الأولى التي تبكي فيها سلمى. لم تكن سلمى تعرف لم كانت تبكي بالتحديد، اختلطت مشاعر كثيرة، في تلك الدقائق، جرحها بعمق أنها تتحرر من آخر خيوط أمل تجمعها بعبدالملك، وهي تبدأ علاقة رسمية بخالد.

7

نهضت على صوت أذان المسجد القريب، كانت قد نامت ونسيت النافذة مفتوحة، قامت بتكاسل، وأغلقتها، صلت الفجر ثم أضاءت الغرفة، توجهت لدولاب الملابس، أخرجت قميصاً تركوازي اللون، وعباءة للقائها بخالد لاحقاً. ونزلت إلى الصالة، لم ينهض أحد بعد، جهزت فنجان قهوة تركية، وخرجت إلى الحديقة، فتحت الصندوق الذي تصل إليه الجرائد اليومية، تناولتهن وجلست في الحديقة الصغيرة تتأمل بزوغ الشمس، كان المكان يضج بأصوات العصافير التي عششت في أشجار الليمون، وتجمعت طيور الهدهد البنية بتيجانها السوداء والترابية تشرب من نافورة صغيرة في زاوية، أسعدتها رؤية الهداهد، ظلت تقرأ الأخبار، وتتخيل حواراً مسائياً مع والدها عن خالد، وزيارته المتوقعة.

عادت سلمى إلى غرفتها، ارتدت فستاناً أخضر عوضاً عن القميص التركواز، سرحت شعرها، ووضعت أحمر شفاه بلون المشمش، وأقراطاً ماسية صغيرة، وبخت عطراً ارتبط بيوم السبت،

ارتدت العباءة، شغلت السيارة، وانطلقت في الشوارع التي كانت شبه خالية صباح العطلة، لاحظت سلمى وغيرها من السائقين افتتاح شارع جديد، تفاجأ بعضهم به فقد كان الانغماس في الرذم المتسارع لأيام العمل الرسمية يسيطر على الحواس ولا يمتلك أحد شيئاً من أقطاب الزمن لملاحظة التغيرات حوله.

دخلت سلمى إلى مقهى ضمن مركز تسوق اعتادت الحضور إليه للقاء خالد، كان ريفي الطابع وإيطالي الطعام، بطاولات مربعة ومستديرة، أطل على حديقة أضفت إحساساً ربيعياً على المكان حتى في أيام الصيف القاسية الحرارة، جلست على الطاولة الأولى التي اعتادت حجزها، مطلة بنظرها على الحديقة، طلبت فنجان اسبرسو، لم تكن تحبها قبل تعرفها على خالد، بدأت تشربها في محاكاة غير واعية له، حتى أضحت صديقة لقاءاتها به.

حضر خالد متأخراً، اعتذر وهو يمد كلتا يديه للسلام، مدت سلمى كفها اليمنى دون أن تنهض، أطالت الاستسلام لحضن يديه لثوانٍ أطول من المعتاد، انتظر هو حتى سحبت كفها، أحبت طريقة إمساكه لها والتي كانت أشبه بالعناق، جلس مقابلاً لها وأعطى الشارع ظهره، لاحظ التعب على وجهها الذي عَرفه عن ليلتها السيئة، فأرجأ سؤاله عن موعد اللقاء بوالدها إلى حين، وبدأ حديثه عن عملها، تنقلا من موضوع لآخر، وبدأت تسترخي وهي تتأمل عينيه وملامحه، منحها القرب منه ما كانت تحتاج لتهدأ، وتتحرر من الأفكار التي استعبدتها ليلة أمس.

سألها حين اطمأن إلى ارتياحها قليلاً، عن موعده مع والدها، أجابته بأنها ستخبره لاحقاً، قال لها إنه يتفهم خوفها، لكنه لا يظن أن الأمور بحدة وسوء توقعاتها، تتفقان أنت وصديقتي حنان على أني أضخم الأمور أكثر من اللازم، لكني أريد لوالديّ أن يفرحا لزواجي، لا أن يُغبنا يا خالد، ردت عليه.

علق خالد بأنه لا يستطيع لوم والديها ففارق العمر بينهما ليس قليلاً. أتمنى لو أن الزمن عجل بولادتك أو لو أنه أخر ولادتي، كي لا تتوتري بسبب تواريخ لا نملكها.

قالت وهي تلعب بالخصلات المسترسلة على كتفيها، ألم تقرأ عن قصة حب البيجوم أم حبيبة والشاه سلطان رئيس الطائفة الإسماعيلية، كان فارق العمر بينهما يقارب الثلاثين عاماً، ومازالت حكايتهما ملهمة حتى بعد وفاتهما، ربما ستكون قصتنا كذلك خالد، تفرقنا أقل من عشرين عاماً.. ولا توجد معادلة عمرية للحب، لو كنا في أزمنة ما قبل النفط لكان مثل هذا الفرق شيئاً عادياً.

قال لها بأنها تُظهر رومانسية في حديثها لا يراها في تصرفاتها وضحك بخبث.

أخذت سلمى كلماته إلى حوار بملامح معاكسة دار بينها وبين عبدالملك، استسلمت وهي تتسرب إلى زمن آخر، رفعت عينيها نحو خالد، تأتأت بالحرف الأول، ردت عُمري لا تكشف العربيات كل وجوههن قبل الزواج.. استاءت لخاطر أنها تخون حضور خالد بذكرى لغيره.

رن هاتفها مرتين متتابعتين ولم تجب، سألته ماذا سيطلب، فنادى النادلة، وطلب أومليت بياض بيض، كان حريصاً على صحته ومظهره، يصعب تخمين أنه احتفل قبل شهرين بميلاده الثالث والخمسين، لوجهه تقاسيم عربية حادة، وعينان حالكتا السواد، تظهر تجاعيد على زاوية عينيه حين يضحك، وابنه البكر على وشك التخرج من الجامعة. طلبت سلمى من النادلة الطلب نفسه وعصير جزر.

سأل خالد عن رأي مروان، لم تشأ أن تخبره بدقائق التفاصيل، أبلغته أنه اعتقد في زواجهما انتحاراً لها، وتوقع أن تسبب لوالدتها أزمة قلبية، كان تراجيديا كأفلام الزمن الجميل والطيبين، سلبي جداً مروان كعادته، تنهدت ثم ابتسمت للنادلة وهي تضع أطباق الطعام، طلب هو شاياً بابونج حينها، تناولا الإفطار بهدوء، واستمتعا بلحظات عادية يعيشانها معاً رغم العقبات المفترضة في مستقبل العلاقة.

رأى خالد أنه يُحاكم على تاريخ مولده وأراد أن يخبر مروان والجميع، أنه يحب سلمى وسيسعدها، ستكون زوجته وطفلته المدللة في آن واحد.. مازال هو نفسه لا يصدق أنه سيخوض تجربة الزواج مرة ثانية. صادف خالد سلمى في محفل دولي قبل عامين، لم يتوقع أن يجد ما لم يكن يبحث عنه في فتاة أول ما لاحظ فيها شعر غجري ظنه باروكة قبل أن يستوعب أنه شعرها الطبيعي، نظرت باتجاهه، بدت كأنها تنظر إلى كل نسخة منه، بدأ حواراً مرتجلاً معها، فأثارت دهشته وهي تكمل جمله، وأدهشها وهو يكمل جملها، بأريحية من عاشا عمراً معاً، اكتشفا

أنهما تشاركا في أشياء كثيرة، الكتب التي يقرآنها، الشعراء المفضلين، هواياتهم العديدة، ورياضاتهم، ذكره حسن ظنها به، بوالدته وهي ترسم له صوراً أجمل مما رأى في ذاته، ووجدها بمرح طفلة تمناها ولم يرزق بها، لا يعرف خالد متى أحبها، ومتى قال أحبك، ومتى قرر طلب يدها، بدا الزمن ككائن يتلاشى معها.

وجدته سلمى رجلاً مرتاحاً، متكيفاً مع ذاته، سعيداً تحت جلده، أعجبها ذلك ولم تكن تلمسته أو لاحظته في رجل آخر، لم يكن مشغولاً بأكثر من اللحظة التي يعيش فيها، شعرت بالأمان معه، وأخبرته بذلك، عرض عليها الزواج، تفاجأت، لم يكن قد مضى على معرفتها به زمن طويل، ومازالت أشباح عبدالملك تتعلق بأستار قلبها، طلبت فرصة للتفكير، ووجدت نفسها تزداد ميلاً إليه حتى وافقت. أرادت سلمى بوعي الوقوع في الحب وأن ينبض قلبها ثانية، لم تجد فوارق السن والتجربة والوضع الاجتماعي مهمة، كان إعجابها به كبيراً منذ اللقاء الأول، والطمأنينة التي يمنحها وجوده تضاعف مشاعر الإعجاب والحب تجاهه كل يوم.

8

عادت سلمى إلى المنزل في موعد الغداء، كان مروان قد حضر بناء على طلبها بالأمس، جلس الجميع إلى مائدة الطعام، تناولوا الغداء، الذي وجدته هي كثير البهارات، بينما وجده البقية عادياً، صبت والدتها لها كأس ماء فشربته، ثم انتقل الجميع إلى الصالون لاحتساء الشاي كالمعتاد، أخبرت سلمى والدها بجملة سريعة مرتبكة، هناك خاطب يطلب تحديد موعد لزيارتك والتعرف بك، ابتسم الأب وسأل عن اسمه، فأجابه مروان معرفاً، وأضاف معلومات وضعه الاجتماعي وعمره. لم تعط الأم الأب فرصة للرد أو التعليق، وأسرعت بالقول هل جن؟ بالطبع لن نوافق على شخص في عمره، لا داعي لمجيئه، مروان أبلغه بالاعتذار.

ردت سلمى وهي تنظر باتجاه والدتها: أمي أنا موافقة.. لم تستوعب الأم ما قالته سلمى، سألتها موافقة على ماذا؟

صُدِم الأب وهو ينصت لحوار ظن أنه يتخيله لابنته الوحيدة، وهي تعلن موافقتها على خاطب يقاربه في العمر. نظر إليها مستنكراً، وقال بصوت غاضب إن سبق وقررت لماذا تريدين مني أن أقابله؟

أدركت أنها أخطأت بالرد ونظرت إلى مروان تستنجد بمؤازرته، قال مروان: لنتعرف عليه، ونسأل عنه ثم نعطيه الرد حسب الأصول، لا نريد لأحد أن ينقدنا.

نظر الوالد إليه بشيء من الحده قائلاً: يصير خير، بينما لم تستطع الأم أن تتحكم بانفعالها وقد اكتشفت نوايا سلمى، تسارع النبض لديها وأحست بدوخة، فحص مروان ضغطها فوجده مرتفعاً، فقرر الوالد أخذها على عجلة للمشفى، ارتدت سلمى عباءتها كي ترافقهم لكن الأم أمرتها بالبقاء في المنزل وأشاحت بعينيها بعيداً عنها، لم تستطع النظر إلى سلمى دون غضب، ورافقها مروان إلى الطبيب.

كانت سلمى تعرف أن شيئاً كهذا يمكن أن يحدث، وأن الصدام بينها وبين والدتها ووالدها محتوم.. لكنها ستتمسك بقرارها، أرادت أحداً يطبطب على الألم الناتج عن ردة فعل والدتها والصمت الغاضب لوالدها فهاتفت حنان، كي تخبرها بما حدث، لم تُرد أن تحدث خالد وهي متضايقة، تساءلت متى بدأت تعيش مشاعر لا تستطيع أن تنقلها إلى خالد دون فلترة.

بعد ساعتين، عاد مروان بوالدته وقد انخفض ضغطها إلى المعدل الطبيعي بعدما أخذت العلاج، أخبر مروان سلمى أنه سيلازم والدته، وبهجت ستنضم إليه بعد قليل..

حين اطمأنت سلمى على والدتها.. استأذنت وغادرت متجهة إلى أقرب مركز يحوي صالة سينما، كان المكان مزدحماً فلم تجد

موقفاً، واتجهت إلى خدمة صف السيارات، تناولت تذكرة الخدمة، كل ما فكرت فيه أن تختلط بشخصيات وقصص تضحكها وتأخذها بعيداً عن الميلودراما التي عاشتها اليوم.. اختارت فيلماً كوميدياً لتحضره، دخلت إلى الصالة، كانت قصة الفيلم عن زوجة وعشيقة تتفقان على الانتقام من الرجل الذي تحبانه، غير أن سلمى ظلت خلال العرض ترسل إلى مروان لكي تطمئن على والدتها، تجولت بعد انتهاء الفيلم بين الجموع قتلاً للوقت، لم تشتر شيئاً، تناولت آيسكريم بنكهة الليمون الحامض، أرادت أن تتأخر، الأمر الذي حدث، إذ عادت متأخرة إلى المنزل، دخلت إلى غرفة والدتها قبلت رأسها واطمأنت عليها، كان مروان وزوجته ما زالا مع أمها، صعدت إلى غرفتها، فلحق بها مروان، لم يكن يعرف ماذا يقول لها، وجه سؤالاً إليها، هل أنت واثقة من اختيارك؟ أجابته بأنها متأكدة منه.

9

أسفر الصبح، استعدت سلمى وتوجهت إلى العمل، حين وصلت إلى المكتب كان بانتظارها باقة من زهور التوليب التي تحبها رغم أنها ترمز للحزن، أشارت البطاقة إلى أنها من خالد، لم تفرحها الزهور كالمعتاد، خطر لها قساوة وقع خطبتها لرجل تحبه على أمها، هاتفت والدتها، لكن الأم تجاهلت الرد، اتصلت بمروان تخبره، قال لها امنحيها مساحة للحزن، امنحيها بعض الوقت، وجدت رَده شديد القسوة، وإن لم يقصده.

اتصلت بخالد شكرته على الباقة، وتمنت له يوماً سعيداً، وأخبرته بوعكة والدتها الصحية، تأثر خالد وطلب منها أن تطمئنه على والدتها أولاً بأول، ثم خرجت من المكتب لحضور اجتماع، لم تتمكن من التركيز فيه، وحين عادت منه، أخذت المهام البسيطة منها وقتاً أطول من اللازم، فقررت إلغاء ارتباطاتها اللاحقة، وأبلغت السكرتيرة بأنها ستعود إلى المنزل لسبب طارئ.

صادفت في المصعد صديقتها ميثاء، سألتها إن كانت على ما يرام، قالت لها أجل، لكن والدتي تعبت بعض الشيء، وأرغب في

الاطمئنان عليها، استقلت سيارتها، وانتظرت لدقائق حتى بدأ المكيف يلطف جو السيارة الحار، أدارت الراديو، كانت المحطة تذيع نشرة فنية، في برنامج لأحدث الأغاني، لم تنصت إلى أي منها، حتى وصلت إلى المنزل، توجهت إلى غرفة والدتها، طرقت الباب، وجدتها تتصفح مجلات وتشاهد مسلسلاً، قبلتها، وسألتها عن صحتها، ردت عليها بأنها صارت أفضل حالاً، وبأنها ستخرج لزيارة صديقتها مساء، أرادت سلمى أن تفتح الموضوع ثانية مع والدتها، لكنها ردت عليها بحزم، لست معنية بأمر خطبتك، ناورت سلمى قائلة لنتحدث في هذا لاحقاً، فكررت والدتها الإجابة نفسها، مضيفة أن لا تتوقع منها شيئاً، قبلت والدتها ثانية وهي تغادر وتقول المهم أن تكوني بخير، لن أكون بخير إن مضيت في هذا الأمر قالت لها أمها.

دلفت إلى غرفتها، أخرجت الهاتف من الحقيبة، اتصلت بمروان لتخبره بما حدث، قال لها امنحينا بعض الوقت، فطلبت منه أن يتحدث إلى والدها لتحديد الموعد. تأفف مروان على الهاتف، لم لا تمنحين الناس فرصة لاستيعاب الهزات التي تتسببين بها، ردت عليه، لأنها حياتي أنا، أنا أقرر ماذا ومتى وكيف، الحياة أقصر من أن أعيش مراعية لمشاعر الآخرين ومتجاهلة مشاعري.

على مائدة الغداء، ظل الصمت سيد الموقف لبعض الوقت حتى فتح الأب موضوعاً، وبدأت الحوارات الاعتيادية بين الأطراف الثلاثة، دون إشارة إلى موضوع الخطبة. لكن حساسية سلمى تجاه نظرات

والدها إليها قد تزايدت، وفسرت إيماءاته بأنه يعني بها قول تخذلينني يا سلمى.

مر يوم الاثنين هادئاً في المكتب، والمنزل، كان هذا هو كل ما كتبته سلمى في يومياتها، قبل أن يأتي الثلاثاء باتصال غير متوقع من عبدالملك، بينما هي في المكتب تستعد للعودة إلى المنزل، استغربت وهي تشاهد الرقم على شاشة الهاتف، ترددت للحظة، قررت أن لا ترد، لن تأتي المكالمة بخير على أعصابها المتوترة، أخذت شهيقاً عميقاً واستجمعت نفسها، ثم ردت، كانت محادثة قصيرة سألها عن أخبارها وعن والديها ومروان، سألته هي الأسئلة نفسها، ثم سألته لماذا يتصل بها الآن، قال لها بأنه شعر بأنها ليست على ما يرام، فأراد الاطمئنان عليها. شكرته، وأكدت له أنها بخير وتفضل أن لا يهاتفها لأسباب لا علاقة لها بالعمل وأنهت الاتصال.

هذا الحبل السري بينهما كيف لأي منهما أن يقطعه، تفاجأ عبدالملك مرات بأنها تعرف عن مرضه دون أن يكون قد أخبرها، عرفت عن المضايقات التي مر بها دون تلميح منه، لقبها بالساحرة، قرأت له الفنجان ذات مرة، فأخبرته باسم أول فتاة أحبها، تفاجأ بتخمينها الاسم الذي كان نادراً، كانت سلمى تكرر عليه نحن توأمان.. تركها اتصاله بمشاعر متضاربة، هي لا تريد تواصلاً معه، رأت اتصاله أنانية منه، بعد أن زالت سكرات الشوق التي عاشتها في الشهور الأولى للفراق، الآن تجده رجلاً ظالماً، استمرأ تضييع سنين من عمرها. لكن كبرياءها منعها من أن تلومه، أو أن تنفجر فيه وتوبخه كما رأت أنه يستحق.

على الرغم من رفض مروان للخاطب فقد اضطر على مضض أن يلعب دور الوسيط بين أطراف العائلة، رأى أن السبيل الوحيد لثني سلمى عن الموافقة هو منحها الوقت لإعادة تقييم مشروع الخطبة، لأن رأي أي منهم لم يكن ليؤثر فيها، فكر أن يقابل خالد وحده ثم غير رأيه خوفاً من أن تظن سلمى أن موافقته مضمونة، زار مكتب والده، وطلب منه أن يحدد موعداً للزيارة، كان رأي مروان، أن يتعرفوا أكثر على خالد، وأن يردوا برأي قبل أن يسألوا عنه، كان الحزن بادياً على صوت والده، وهو يقول له ليأتي يوم السبت، لا أريد أن يطول هذا الموضوع، وربما استطعنا تداركه، كلمها يا مروان، لا أرى سبباً وجيهاً لموافقتها عليه.

10

بدا الأربعاء عادياً كأي يوم لسلمى، حضرت اجتماعاً مع مديرها الذي لقبته بالطيب، أطال الاجتماع ولم تتبين ما كان يَهدف إليه، تحدث في مواضيع غير مترابطة، لم يعط توجيهات تخص العمل، قاطع حديثه كي يجيب على مكالمة زوجته، التي سألته ماذا يريد أن يتناول على الغداء. كانت سلمى تجده لطيفاً ومملاً، لم يكن مفيداً ولا ضاراً، وقدرت هذا له.

أخبرها المدير أنه أرسل دعوات إلى أصدقائه مدراء إدارات التسويق والاتصال في جهات عدة تخفيفاً من الأعباء عليها، ابتسمت له وأَسرت وها أنت تضر دون قصد، سألته إن كانت الدعوات قد سلمت باليد أم بالبريد، فأجاب بعضها هكذا وبعضها كذا، قالت له تعرف يا بو محمد بأن توجيه الدعوات من اختصاص اللجنة المنظمة حسب اللوائح والبروتوكول المتعارف عليه، تضاءل لإحساسه بأنه ارتكب غلطة، فوجهها مصححاً فعلته استعيدي ما أمكن منها، خرجت وهي تطمئنه سأبدأ حالاً، وتكمل ليتك لم تتفلسف اليوم يا بو محمد، لا ينقصني هذا.

كانت استعادة الدعوات صعبة وستثير جلبة، ولكن تجاهل البروتوكول وقعه أسوأ، هاتفت سلمى رئيس اللجنة المنظمة وأخبرته بما حصل، قال لها ليتحمل مديرك مسؤولية تدخله فيما لا يعنيه، ردت عليه لن يكون مهماً من الذي ارتكب الهفوة، اللجنة ستكون في وضع محرج، لا يصح أن تصل دعوات للموظفين قبل الرعاة الرسميين وكبار الشخصيات.. فسألها ماذا تقترح، قالت له الحل الأبسط والملائم هو أن نرسل الدعوات الرسمية أبكر من الموعد المخطط له، أبعثها إليك، تتسلى باعتمادها الليلة، وتوزع غداً وننتهي من إحراج لا داعي له.

أخذ تجهيز الدعوات وقتاً طويلاً، لم تنتبه سلمى إلا وعقارب الساعة تشير إلى السادسة مساء، صلت المغرب، وعادت إلى المنزل، سلمت على أمها التي كانت تجلس في الصالة ثم صعدت إلى الغرفة، خلعت ملابسها على عجل وفتحت الدش عايرت المياه لتكون دافئة، رفعت وجهها أمام الشلال، وبكت لمشاعر متضاربة لم تستطع تحديدها أو البوح بها، أثار التدفق على عينيها المغمضتين بعض السلام، وبدأت تتخيل أن مطراً يتساقط على جبينها وأنفها وأنها بعيدة، حيث لا تلوم نفسها على ما لم تقله لعبدالملك، ولا غضب من والديها.

أنهت استحمامها، ارتدت بيجامة تحمل صورة شخصيات كرتونية أحبتها في الطفولة، جففت شعرها، ونزلت إلى الدور الأرضي، كان موعد تناول العشاء قد حان، والمساعدة المنزلية قد جهزت السفرة، سألت والدتها عن والدها، أخبرتها أنه سيتأخر الليلة وسيتناول العشاء

في الخارج، جلست مكان والدها على رأس الطاولة، تناولتا الطعام في جو متكهرب، كان لدى كل منهما ما تقوله للأخرى، لكنها احتفظت به، كان الذنب يتآكل سلمى لكنها مازالت تأمل أن توافق والدتها على خالد بعد أن تتعرف إليه.

شاهدت الأخبار المحلية على قناة Dubai One، استأذنت من والدتها بعد انتهاء النشرة، ودخلت إلى الغرفة، حضرت أحد المسلسلات الأجنبية على الآيباد، وثرثرت مع ميثاء وحنان، حتى اتصل خالد، حدثته لربع ساعة قبل أن تعود إلى ميثاء وحنان، ثم أخذت كتاباً للحلاج توقفت فيه عند الباب الخامس وبدأت تكمله.

استيقظت سلمى متأخرة على غير عادتها، أحست بدقات قلبها تتسارع رغم أنها مستلقية على الفراش، فقررت أن ترتاح وتبقى في المنزل، بعثت رسالة نصية للسكرتيرة، أعطتها تعليمات وأخبرتها أن ترسل بعض الرسائل نيابة عنها.

طرقت والدة سلمى الباب حين انتبهت إلى أنها مازالت في البيت، دخلت لتطمئن عليها، قالت لها إنها بخير لكنها مرهقة قليلاً، أمي أرجوك وافقي تعبت من غضبك، انفجرت الأم، أنا تعبت من غضبك علي، لم تصرين على أن تصادري حقي في أن أفرح بزواج ابنتي الوحيدة والاطمئنان عليك، لكني أحبه، قالت لها الأم بالإنجليزية، كلتانا تعرف أخطاءك في اختيار من تحبين، إنه ليس حباً، أنت فقط تريدين أن تثبتي لنفسك شيئاً لا أفهمه، هل وضعه أفضل من عبدالملك وتظنين أنك تنتقمين منه هكذا؟

تفاجأت سلمى بصراحة أمها وردت أن موضوع عبدالملك منتهٍ من سنوات.. سألتها ما الذي حدث؟ لم لم تنتهي قصتكما نهاية طبيعية بالزواج.

أشاحت سلمى بوجهها، لا تريدين أن تعرفي، أصرت الأم على أن تخبرها، والدته لم توافق على زواجه من فتاة ليست عربية الأصل، أي أنك تلومينني على عدم زواجك بعبدالملك، والآن تنتقمين مني بزواجك من رجل لا يناسبك.

خرجت الأم مغلقة الباب بعنف للمرة الأولى في حياتها، استحضرت ذاكرتها مواقف لا نهائية لامتها عليها سلمى، لم تعرف الأم متى بدأت قسوة ابنتها...

11

أخبر مروان سلمى بأن والدها حدد مساء الخميس القادم، موعداً لزيارة خالد والتعرف إليه. ابتسمت واحمرت وجنتاها. أخيراً، يقترب حلمها خطوة منها. اشتهت أن يُذيل الحديث بكلمة مبروك، لكنه لم يفعل. تذكرت حماستها هي لخطبته. قفزت فرحاً وهو يخبرها عن عزمه على خطبة الفتاة التي يحب، ثم تضاربت مشاعرها سريعاً بعد ذلك. لقد كبر توأمها الطفل، وها هو يكوّن أسرته قبلها. تنتهي قصة الحب بينه وبين بهجت النهاية الطبيعية المتوقعة، فلا هو يكسر قلبها، ولا يسرق من عمرها، ثم يخذلها. لطالما ظنت أنها ستكون فرحة والديها الأولى، وسيكون طفلها الحفيد الأول. يومها، دعت على عبدالملك للمرة الأولى، وتضرعت إلى الله أن ينتقم منه لظلمه إياها، وبكت بحرقة أم مات طفلها للتو. جمعت كل الأشياء التي تذكرها به، الكتاب الذي أهداها إياه، الزهور الحمراء التي جفت منذ سنين وأبقتها بجانب السرير وطلبت أمها مراراً التخلص منها لأنها تجلب الطاقة السيئة، لكنها عاندت واحتفظت بها. حتى هداياه كانت فخاً للفأل السيئ. جمعتها كلها، وضعتها في كيس بلاستيكي أسود، وطلبت من الخادمة التخلص منها.

صغر عبدالملك في عينيها كثيراً. ها هو رجل أصغر منه، يتخذ خطوة بسيطة، فيعلن صراحة عن حبه ويكلل هذا الحب بالزواج. قالت والدتها يومها لمروان: لا يجوز أن تتزوج قبل أختك الكبرى، ماذا سيقول الناس عنا؟ فدافعت سلمى عن رغبته، «هذه أفكار قديمة لم يعد أحد يلتفت إليها يا أمي». بقيت والدتها حزينة لبعض الوقت لأنها رأت في ذلك شؤماً على حظ ابنتها.

مساءً، اتجهت الأم إلى غرفة سلمى، فوجدت ابنتها دامعة. كابرت سلمى كالمعتاد أمام والدتها، «ماما دعينا نفرح بمروان». ردت الأم: أعرف أنك قوية، لطالما أدركت أنني لا أربيك كما أربي أخاك، كأنك لا تحتاجين إلى أحد، ولا حتى إليّ ولوالدك».

لطالما بنت سلمى حواجز بين قلبها واحتياجها لوالدتها، كي تحمي قلبها من هذا الوجع الخانق الذي يلمّ بها كلما أحست أنها ذات مشطورة إلى نصفين، نصف أبيض وآخر أسود، نصف صحراوي وآخر ملوّن. كانت تشعر أنها مصنوعة من مادتين لا تجرؤان على الاختلاط معاً، وأنها ذاتان في جسد واحد. أيمكنها أن تقول لأمها مثلاً إنها تضطر إلى حماية حياتها منها؟

طمأنت سلمى والدتها بكلمات فارغة من أي شعور، قبلتها، ثم خرجت هاربة إلى الصالة. لا يستحق عبدالملك أن تبكي بسببه، أن تضعضع والدتها وتربكها أكثر مما تفعل. لن يُفسد بقية يومها. فصلت إحساسها عن اللحظة كالمعتاد، قست على مشاعرها، وضعتها في

صندوق، وأخفته بعيداً، مستعيدة بذلك بعضاً من توازنها المزعوم.

هاتفت حنان المتحمسة لخطبة لم تحصل بعد. سألتها حنان عن مشاعرها، فأجابت:

- «لا أدري بعد، أحاسيس مختلطة... يدق قلبي بسرعة، وترتجف ذراعاي، أتحمس لزيارته، لكنك تعرفين الأجواء في البيت هذه الأيام».

- «ماذا ستجهزون، ومن سيأتي معه؟»

- «لا أدري إن كان سيأتي معه أحد.. هل تظنين أن أحداً من أهله سيأتي في زيارة التعارف؟»

استمرت المكالمة في نقاشات وفرضيات، حتى استأذنت حنان منهية المكالمة.

12

فتحت سلمى موقع محل الزهور المفضّل لديها، وطلبت باقات ورد للزيارة المتوقعة. اختارت البيونيه البيضاء التي يحبها خالد... كان أنيقاً يقدّر تفاصيل الجمال، تستوقفها أزرار أكمامه المميزة، وخاتم فضي كان لوالده، يتوسطه حجر فيروزي بيضاوي الشكل، يضعه في البنصر الأيسر باستمرار. كانت هناك تفاصيل كثيرة لتجمعه بوالدتها، لو أنها تنظر إليه دون حاجز العمر، ومشكلة زواجه السابق.

حين أخبرت أمها عن زيارة والدة عبدالملك المتوقعة قبل سنين، ردّت: فليتفضلوا متى يناسبهم. كانت الأم متحمّسة جداً للخطبة التي طال انتظارها، لذا فقد حددت نوع الزهور التي ستملأ مزهريات المنزل، قبل أي شيء آخر. اختارت زهور الكرز اليابانية باهظة الثمن، ثم قررت تبديل ستائر الصالون التي ما لبثت أن ملت منها، ثم طلبت صواني مذهبة جديدة، ثم أخرجت طقم سفرة مطلياً بالذهب عيار 21 قيراطاً، من المخزن، قد اشترته من إيطاليا ولم تستخدمه بعد، ثم طلبت بخوراً جديداً للزيارة، وغيرت الزهور في أحواض الزرع أمام البيت. اشترت عقداً ماسياً جديداً بمبلغ لم يصدقه زوجها، وفصلت فستاناً

للاستقبال لدى مصمم معروف، ووفت بنذرها أن تطعم مائة مسكين لخطبة ابنتها.. ثم... ثم...

مارست الأم طقوس التجهيزات، حتى أحستها سلمى أكثر سعادة بالحدث منها. كانت تضحك طيلة الوقت وتلوّن مزاجها، بسبب الفرحة التي انتظرتها منذ أن ولدت بنتاً. لطالما تمنت أن يكون بكرها أنثى، على عكس الثقافة التي جاءت منها، والثقافة الذكورية حيث تعيش الآن. أرادت فتاة تغدق عليها العاطفة، تلبسها ما تحب، تأنس بها، تشاركها اهتماماتها الأنثوية، وابنة تكون الأخت التي لم ترزق بها.

خرجت سلمى باتجاه الصالة حيث تجلس والدتها، لتخبرها بالموعد الذي حدده والدها. مر شريط الذكريات ثانية في بالها، فآثرت أن لا تفعل، محتفظةً بفرحتها مكبوتة بين حناياها. جلست بجانبها، وضعت يدها على يد والدتها كما كانت تفعل وهي طفلة تلعب بخواتم أمها وتسحبها من أصابعها لتلبسها. ظلتا لبعض الوقت دون أن تنبس إحداهما بكلمة، ثم قالت سلمى: أمي وجدت خاتماً جميلاً في إحدى مجلاتك، سيكون مناسباً لبهجت، ثم تناولت إحدى المجلات تبحث عن الإعلان. لم تجده في المجلة الأولى، وإنما في الثانية، فأرته لوالدتها. «هذا ذوقك أنت، وليس ذوق بهجت. بهجت فتاة ملونة وعصرية، أحياناً أحس بأنك لا تعرفينها البتة»، قالت والدتها، فتذكرت سلمى أنها بالفعل غير كلاسيكية أبداً.

جلستا تحضران مسلسلاً، ثم الأخبار، إلى أن رن الهاتف. كان

خالد. ردت عليه مبتعدة باتجاه غرفتها، مبتسمة ابتسامة واسعة أحس هو بها في صوتها. «بشريني، ما جديدك»، قال، فأخبرته عن الموعد، فابتسم بدوره. كانت هي كالمعتاد من تستبق الأحداث. قالت له «لنختر دبلتي الخطوبة، لا تقل لي بأنك لن تلبسها»، ضحك. «أحب استباقك للأمور، اختاري أنت»، قال فأردفت «لا أريد دبلة كلاسيكية، أريد دبلة بماسات صفراء». «تمني واختاري، لك ما تطلبين». كان في مخيلتها خاتم جرّبته منذ سنين، في معرض للمجوهرات، يساوي ثمن منزل، لم تفكر في سعره، فكرت أنها ستحتفظ به في يدها كل العمر، وبأنها ستمنحه لابنها أو ابنتها ذات يوم.

13

في الصالة، أغلقت الأم التلفاز، وصعدت إلى غرفتها. حضر زوجها بعدها بقليل، أخبرها عن تحديده للموعد وهو يخلع غترته. تهاوت الأم على الكرسي، مدركةً سبب البهجة التي على وجه ابنتها قبل قليل. ها هي تصير في الخانة الأخرى. طفرت دمعة محبوسة من عينيها، مسحتها. أين أخطأت كي تجزى بابنة ترضى بنصف حلم، ونصف سعادة. رجل يكبرها بعشرين سنة، صار أباً من سنين، ولن يفرح بأبوته الأولى معها، قبلته الأولى، تجربته الأولى. الأشياء التي يمارسها الإنسان للمرة الأولى مع من يحب، هي ما يبقى. كانت تحتفظ بآلاف الصور لأماكن زارتها وتجارب خاضتها للمرة الأولى بعد الزواج، تجربة التزحلق الأولى، الرحلة البحرية الأولى، آلاف الذكريات تبعث صورها فيها الفرح. ما زالت صور هدايا الزواج، تثير الحنين إلى عطور بعينها لم يعد بعضها يُصنع، أو أنها نسيت أسماءها، لكنها ظلت حنيناً مقدساً لعمر جميل عاشته كقصص ألف ليلة وليلة، مع فارسها العربي.

كانت قد قرأت شعر الخيام والحلاج، وحلمت بالسفر إلى تلك الصحاري التي صورتها الأفلام بأنها متع وسحر أزلي، تنتشر فيها

قصور تملؤها الراقصات والمطربات والموسيقى الشرقية. حلمت بأرض يملأها السحر والغموض، لكنها فوجئت بمدينة صغيرة بأحلام كبيرة لا تنتهي، تزداد حداثة كل يوم، حيث ينتشر أبناء جلدتها في كل مكان.

لم تشعر قط بالغربة في دبي، وكونت صداقات مع مسافرات أخريات إلى ذات الحلم، يقربنها عمراً وتجربة. تأقلمت بسرعة مذهلة. واكتشفت أنها هنا تتحرك بأمان أكثر مما تفعل في مدينتها، أن أحداً لا يجرؤ على الاقتراب من جمالها الذي سبب لها معاكسات كثيرة، وهي تضع هذا الرداء الأسود الخفيف على كتفيها. تعلمت كيف تكون العباءة حماية، وكيف تستخدم لغتها الأم للحصول على أفضل المنتجات بأقل الأسعار. أحبت فكرة أنها بين مكانين ولغتين، كتبت الرسائل لأمها في البداية، وصار الهاتف مع الوقت وسيلة تواصل أكثر عملية. ووالدتها تتصل أكثر منها، لأن أسعار المكالمات الدولية أرخص في الهند، فكانتا أحياناً تقضيان ساعة أو أكثر على الهاتف. تبعث لوالدتها صور أطفالها وصديقاتها. وترجوها المجيء إلى دبي، المدينة التي يتحدث عنها الجميع في الهند، حتى أن البعض أوعز أن اسمها يأتي من هناك، وأنه يعني «الشقيقان».

ومع هذا، لم تكن الغربة سهلة فعلاً، حتى ولادة سلمى. لقد جذرتها الأمومة كشجرة في الأرض الجديدة، فنسيت أنها تنتمي إلى مكان آخر. هو الإحساس نفسه الذي تولى والدتها حين وضعتها في

شمال الهند، فصار الشمال وطنها، ووطنها الجنوبي غريباً. عجيبة هذه العلاقة بين الأبناء والوطن، كأنهم يخلقونه بالنسبة للأم حيث ينشؤون. ينبت الوطن المحمول لهم ومعهم، وتتغير الحياة بأسرها لتكون امتداداً لهذا المخلوق الصغير الذي يكبر داخل البطن لأشهر، ثم يصير المشرق والمغرب والأرض والسماء، فلا يعود الوطن جغرافيا، بل يصير إنساناً يمشي على قدمين.

كل هذا التاريخ تريد سلمى محوه. تغتال ثلاثين عاماً ونيفاً من الحلم وتضع والدتها في الخانة الأخرى. متى كُسرت يا ابنتي وصرت بنصف حلم؟ تتساءل أم سلمى، لماذا ترغبين الزواج من رجل يكبرك كل هذا العمر؟ لماذا ترفض ابن صديقتها مريم، الذي يماثلها في العمر ويحبها، وتتمسك برجال لا تعرف تواريخهم. فإما رجل يعد ولا يفي فترفض فرصاً مناسبة في انتظاره، أو رجل بحياة كاملة وولدين في سن الشباب... كيف تفكرين يا سلمى، وكيف ترين الرجل؟ كيف عساها تنخدع مرتين، لا مرة، هذه الطفلة العنيدة التي نشأت وهي لا تحتاج أحداً، تختار من تحبهم ومن تكرههم بحسب مشيئتها، تغير عملها بانتظام دون مشورة أحد، وتكون ضبابية حين يكون الجميع متفقاً على رأي ما.

تذكرت الأم نقاشاتها الأكثر نضجاً من عمرها في سنين مختلفة، وطفلتها التي اكتشفت صناديق البريد في إجازة صيفية في لندن، وأرادت أن تكتب رسالة إلى الله. هل تعرفين عنوان صندوق بريد

الله؟ راحت تسألها، كلما صادفت في دربها أحد الصناديق الحمراء. كانت هذه المخلوقة الصغيرة تصدم والديها كل حين بأسئلة يحتاران في الإجابة عنها، أسئلة تفتح نيران أسئلة أخرى، فيلوم الأب زوجته معاتباً: أنت فتحت عينيها على هذا الحوار مبكراً، فترد الأم عليه: إنه التلفاز الذي يخرب عقلها...

منذ البداية، تحدثت سلمى بجمل مفيدة كاملة، متقدمة على أقرانها. تحدثت ثلاث لغات بطلاقة، وبدأت تقرأ باكراً. ابتلعت كتباً لا تناسب عمرها. ذهل والدها عندما وجدها تدرّس ابنة عمها التي تكبرها سناً وتتقدمها بصفين. أدهشته ابنته، تمنى سراً لو كان مروان مثلها، لكنه كان بشخصية أخرى، عملياً جداً، مع نفحات رومانسية تظهر بين حين وآخر كوالدته، ولم يكن يعرف أنها هي أيضاً كانت تتمنى الأمنية نفسها. لقد أراحها أن يكون مروان طفلاً عادياً، لم يسألها عن الموت، والأنبياء، والله، والحيوات السابقة، لم يقل لها في عمر السنتين: أمي أنت أجمل من القمر.

لم ترد أم سلمى أن يوافق الأب أو مروان على خطبة جائرة، لم ترغب أن تكون هي من يرفع هذه الـ لا، فهي لطالما اختارت أن ترفض عن طريق الأب والمحيط، أن لا تقول لا واضحة لابنتها التي تخشى كثيراً إغضابها مخافة ان تنزلق بعيداً عنها إلى حضن الجدة.

لم تنم أم سلمى. لا تفهم كيف يجب أن تبارك زواجاً مكتوباً على جبينه الفشل، ولم يجب أن تصمت كي لا تفقد علاقة بهذه الهشاشة مع ابنة استقلت عنها منذ طفولتها...

14

استيقظت سلمى بمزاج فرح سرعان ما خذلته أفكار سوداء استولت عليها. قررت أن تتناول إفطارها في الحديقة، فنزلت إلى زاويتها المفضلة. وضعت خلف ظهرها أرائك، ورمت بنظرها إلى زهور الياسمين التي بدأت تتفتح منذ عدة أيام. تحب الياسمين، يذكرها بمنزلهم القديم الذي مازالت تحلم به. لم تر يوماً بيتهم الحالي في أي من أحلامها، لا تعرف لماذا، كأن اللاوعي توقف عن تسجيل ذاكرتها الحديثة. سقطت الشمس مباشرة على الزاوية حيث جلست، أغلقت عينيها، فتحرك بها الزمن كالبندول بين اللحظة والقادم والماضي، بين والدتها وخالد وعبدالملك، واشتعلت بين يديها مشاعر كانت ظنت أنها انطفأت. سنوات من محاولات النسيان، وها هي تكتشف أن الزمن لم يُطفئ حرائقها. بُعِثت الأشياء الميتة، وانتصبت الجثث من جديد. كيف ولمَ يحدث هذا الآن؟ لمَ تُريد أن تقف في وجه عبدالملك، بعد كل هذه السنوات، لتصرخ فيه أنه لم يكن عُشر الرجل الذي ظنته، وأنه ليس الصورة التي يراها لنفسه في المرآة، وقد سرق ما لا يعود، وكسر ما لا يجبر.

شعرت سلمى بالنار تشتعل في أفكارها، فنادت باتجاه المنزل وطلبت من المساعدة أن تأتيها بقبعة. أحضرت إيما قبعة عريضة من القش وضعتها سلمى على رأسها. ارتجفت حين باغتها عطر عبدالملك يفوح من القبعة، وغرق قلبها في عالم آخر. كانت قد اشترتها في سفرة لها بعد الفراق، فكيف تحمل عطره؟

انتفضت فجأة مخافة أن يكون خلفها، أن يطوق كتفيها بيديه ويقبل جبهتها. حين كان يفعل، كان قلبها يهوي والدموع تهوي منه. خلعت القبعة ورمتها بعيداً، وركضت هاربة.

لمحت أمها جالسة في المكان المعتاد. غشيت عينيها ضبابة. أوقفتها المساعدة المنزلية، تسألها هل تحضر لها القهوة في الغرفة. شُلت سلمى للحظات، دار المنزل بها، تمايلت، صرخت والدتها وهي تراها تسقط على الأرض. لم ينتبه أحد لكونها لم تأكل منذ يومين. لم تنتبه هي. انخفض ضغطها، فحملوها إلى المستشفى.

حين أفاقت سلمى شعرت بتعب من أفاق من غيبوبة، لا من إغماءة قصيرة أتلفت أعصاب الجميع. ثَقُل الوقت عليها، فأحست برغبة الهرب من الضجيج، لكن إلى أين ومن؟ هل حقاً إنها لم تسافر منذ ثلاث صيفيات مع والدتها؟ كيف مرت هذه الساعات والأيام، وكيف تحرك الوقت؟ تذكرت نفسها وهي تقول لجدتها التي تهدلت ملامحها: جدتي قفي على رأسك، سيرتفع وجهك ثانية إلى الأعلى ويعود جميلاً كما كان.

وضع لها الطبيب المصل، ثم سأل الأم عن صحتها النفسية وإن كانت هناك محاولات انتحار سابقة. فزعت الأم من السؤال، أتكون سلمى تعاقبها بإهمال صحتها. ها هي تضعها في خانة العدو ثانية. لا لن تفعل ابنتها هذا، فسلمى عاقلة، مؤمنة، تذهب للعمرة مرة أو أكثر كل عام، وتؤمن بالقدر. لن تفعل شيئاً صبيانياً كهذا. هذا الطبيب مخرف، كلهم مخرفون. ابنتي نسيت تناول الطعام، فعلت هذا مراراً.

تذكرت إغماءتها الأولى. كانت ما تزال طفلة في التاسعة تلعب في الحديقة. سقطت، فأخذتها للمستشفى. كانت لم تأكل. لم تنتبه أمها إلى أن بنات عمها كن يطلقن عليها لقب البطريق، لأنها ممتلئة بعض الشيء. توقفت الصغيرة عن الأكل. ماما، إنهن يسخرن مني، ويشددن شعري. بدأت أم سلمى تضفر شعر ابنتها عند زياراتها إلى بيت الجدة. كانت الضفيرة هي الخطوة الأولى لتكون متماثلة ببنات عمومتها، اللاتي لا يمتلكن شعرها الناعم. صارت الضفيرة التسريحة الرسمية لسلمى.

جاء مروان على عجل إلى المشفى، كي يطمئن على شقيقته. سألها منذ متى لم تأكلي، لا يجب أن تلجئي إلى وسائل ابتزاز غير مشروعة، ومطالبك قد استجيبت. ظن أنها تناور كي ترضى أمها عنها. أجابته بغضب: لست بهذا المكر، لن أعرض حياتي للخطر كي أستدر تعاطف أحد. استدرك قائلاً: «أنا أمزح معك، لم أقصد شيئاً»، فردت: «وكأنك لا تعرفني، تسبغ علي صفات ملائكية أو شيطانية ليست أنا..

وانتبه لكلامك لأنك جرحتني». اعتذر إليها مروان وهو يقول لوالدته، «ماما، أنظري الفيلسوفة، اليوم بت أنا لا أعرفها. لم تتزوج بعد وها هي تبدأ بالانشقاق عنا». ردت سلمى ممازحة: «ماما يجب أن يضع الطبيب مصلاً لمخ ابنك، أظن أنه أصيب بلوثة سبّبها حمل بهجت».

ضحكت الأم، وتمنت لو أنها رزقت بأبناء آخرين، لكنها كفت عن المحاولة بعد أن فقدت جنينين لم يكتملا. كانت سلمى تقول لها: «ماما، إخوتي سيكونون عصافير في الجنة، وددت لو أني كنت عصفوراً هناك» أو «هما أيضاً ماما سيكبران مثلي ومثل مروان». أحست الأم بالغصة. كانت فترات حملها تلك صعبة جداً. لا يكتمل الحمل، فتدخل في فترات اكتئاب طويلة، لا تخرج منها بسهولة. استشار الزوج عددا من الأطباء النفسيين، وحاول التسرية عنها بالسفر والهدايا وتغيير الأثاث، وبأي شيء يمكن أن يشغلها قليلاً عن حزنها. كان يعرف أنه لا يتعامل مع فقد جنين فقط، بل مع اجترار مكثف لكل حزن وموت مرا بهما سابقاً.

كانت تسمي الطفل قبل ولادته، تتحدث إليه وتقرأ له قصصاً قبل النوم. تعيش دور الأم قبل أن تُنفخ فيه الروح، تشعر أنه حي يرد عليها، تتخيل شخصيته، لونه المفضل، ماذا سيحب، كما تخيلت مروان وسلمى ذات يوم. لم تنظر للموت على أنه احتمال وارد، لم يمت طفل تعرفه من قبل. فقدت والدها في سن صغيرة، لكنها لم تشعر بهذا الفراغ في قلبها، وبتسرب الحياة منه.

هذا الموت بلا ذكرى، هذا الفراغ، هذا الثقب الأسود في القلب يبتلع الحياة. مرت به مرتين. كان الألم الذي لم تظنه ممكناً، وكانت بعد الفقد تفقد من عمرها سنتين في الاكتئاب. تنكمش على نفسها، لا ترى وجهها وهي تنظر إلى المرآة، لا ترى سوى هوة من سديم أسود يبتلعها، وهي لا تقاوم. كانت أشياء صغيرة تنقذها كل مرة، سؤال صغير من ابنتها، أو موقف لا يعول عليه كثيراً.

غضبت سلمى ولامت في سرها عبدالملك على إغمائها. أرادت إثماً أخيراً تلصقه به، هو الذي لم يعد موجوداً إلا في أفعال ماضية تستحضرها بكثافة الآن. قالت لوالدتها: آسفة لأني لم أحافظ على وعدي بالاهتمام أكثر بصحتي. ماما، أنا بخير. من اليوم فصاعداً، سأتناول الإفطار والغداء والعشاء في المنزل. يبدو أنني لا أطلب شيئاً حين أخرج مع صديقاتي، ولا ألحظ ذلك.

أذن لها الطبيب بالمغادرة بعد ساعات، ولم تخبر خالد عما حدث حتى عادت إلى المنزل.

15

في المنزل، تناولت وجبة حضرتها والدتها، شربت عصيراً لا تحبه، وفعلت كل ما طلبته أمها: ألغت موعدها مع حنان، وطلبت إجازة لترتاح. أرادت أن تهرب من ترّهات العمل، ومن الأسئلة التي لا تكف تطرحها على نفسها. أنهكها شيء بسيط كتناول الطعام، وصعود الدرج، فاستأذنت بالذهاب إلى غرفتها حيث أرسلت رسالة نصية إلى خالد. استندت إلى ظهر السرير المبطن بالإسفنج القاسي، على وسادتين من الحجم الكبير، ووضعت ثالثة على بطنها حيث ارتاح كتاب أحضره خالد لها. قرأت قليلاً، فوجدته يشبه خالد، فيه فرح كالفرح الذي تراه هي في عينيه. كتب بشخصيات يشبه دفئها الدفء الذي تشعر به حين تلمس كفاه يدها. كان دافئاً، يتحدث ببطء يوحي بالثقة، يسألها عن تفاصيلها الصغيرة، متى نامت، وماذا تناولت على الغداء أو العشاء. اندمجت في فصلين من الكتاب، ثم وضعته جانباً.

تناولت الآيباد، أدخلت كلمة السر، فتحت برنامج Word، طبعت تاريخ اليوم في بداية السطر، وسّطته الصفحة، لونته بالأحمر، ضغطت على مفتاح السطر الجديد، واسترسلت في الطباعة:

لم أعد أثق بهذا التاريخ وأنا أنزلق بين ثلاث سنوات مضت وبينه. من أين يأتي رجل لم أعد أعرفه، أو أني لم أعرفه قط، فيتلاعب بعقلي، بحواسي، وبجسدي الذي لم يعد يسترخي.

توقفت، مقاطعةً الفكرة باتصال أجرته مع مركز قريب للتدليك قررت أن تذهب إليه. ربما استرخت قليلاً، وخف هذا التشنج الذي تحس به في عضلات رقبتها وكتفها الأيسر. عادت إلى مدونتها:

لماذا مرت السنوات من عمري تاركة خصلاً بيضاء وخطوطاً رفيعة حول عيني اضطرتني إلى حقن المنطقة بمادة مالئة، ولم تمر السنوات نفسها على هذه الخلايا التي تختزن عطره وتطلقه الآن علي في بيتي. كيف لي أن أهرب من دفاتر اختفت ولم تعد موجودة كي أحرقها، أشياء وأشخاص وأزمنة لا أملك أياً منها؟ هو لم يعد هنا، ولولا اتصال لا معنى له منذ أيام، لما كنت سأعرف أنه على قيد الحياة. لماذا يجب أن أكره جزيئاً جديداً مني، وأنا لا أتصالح مع أجزائي أصلاً. أحمّل أمي وخالد الكثير. خالد، هذا الرجل الذي يدفع أمام عائلتي ضريبة أن يحب فتاة تصغره عمراً. لم لا يرون أنه يعيد إلي توازني، يغمرني بحب بكل أجزائي، يقف معي حين أتضعضع من أسئلتي، يقبلني دون رتوش، ويهتم دون طلب. كنت أحس بالوحدة مع عبدالملك، ومع خالد بالصحبة. حتى عندما تفصلني آلاف الكيلومترات عنه، كان الحاضر دون أن أطلب منه. لم لا تصدق أمي أن اختياري الأول كان خطأ وأن اختياري لخالد هو الصائب. ها هي ارتبطت بوالدي وهما

قطبان من عالمين مختلفين، ونجح زواجهما. تفصل بينهما عشرة أعوام، فلماذا يعيّنان نفسيهما قاضيين على قلبها، وهما اللذان ناضلا من أجل قصتهما. لمَ يحاسباننا خالد وأنا على ما لا نملك، تماماً كما حاسبني عبدالملك على ما لا أملك. لا أريد لقلب خالد أن يُظلم كما ظُلم قلبي، لا أريد أن أكون عبدالملك باسم آخر في حياة خالد.

توقفت عن الطباعة، قرأت ما كتبته. صفحتان ونصف. خزنت الملف باسم أنا، في تاريخه. وضعت الآيباد على المنضدة المحاذية، ثم نهضت، تاركة السرير في فوضى وهي تتثاءب. فتحت الباب ونزلت إلى الصالة. والدتها تجلس على الأريكة المعتادة، تضع قدميها المنتفختين من الوقوف، على قطعة أثاث تستخدمها أحياناً ككرسي، وأحياناً كطاولة. جلست الى جانب أمها، وضعت رأسها على فخذها ومددت رجليها على الأريكة. شعرت بالبرد، فنادت إيما لكي تحضر لها الغطاء الأحمر من الكشمير الناعم. باغتت أمها بصوت هادئ يحمل جملة قاسية، «أمي، أنت تظلمين قلب ابنتك الوحيدة».

فاجأ عنف الاتهام الأم، ترددت قبل أن ترد: ما تظنينه ظلماً هو خوف أم فقدت فلذتين، وجربت الحزن الأسود، لا أريد أن أفقدك للحزن، لا أريد أن تعودي إلي منكسرة. زواج كهذا لن يستمر، إن رجلاً يتأرجح بين عائلتين لن تكون لك الأولوية في حياته. العربي يفقد سريعاً الاهتمام بامرأة يمتلكها، إن رجلاً في عمرك، سيفهمك وتكونين الأولى والأخيرة في حياته، سيكون زوجاً أكثر استقراراً.

أنصتت سلمى دون رد. أرادت أن تعترض، لكنها صمتت. راحت الأم تزفر التنهيدة تلو الأخرى، وهي تلعب بشعر ابنتها، تمسد رأسها كطفلة وتقبل شعرها المفعم برائحة الخزامى. «لم تعطرين شعرك، سيبيض من العطر»، سألتها أمها، فأجابت «لم يبيضه العطر يا أمي، بيضته أحلام لم تتحقق».

لم تقل سلمى بعدها شيئاً، مخافة أن يزيد كل ما تقوله من إحساس والدتها بالذنب. لقد أصبحت عدائية، تدرك هذا، لكن يبدو أنه الخيار الوحيد مع أطراف لا تخسر شيئاً، بينما تخسر هي الكثير. لماذا لا يساندونها في هذا القرار المصيري؟ كيف يحولون حقها إلى صدقة؟ ما هذه المعادلة المجحفة في الحياة، كيف تجد أمها نفسها مظلومة ومجروحة بزواج ابنتها، وكيف يرى والدها أنها تتحداه لأنها تريد أن تبني أسرتها الخاصة، كيف يساوم مروان على حبها ودعمه لها بقرار يخصها وحدها؟ كيف تندفع إحباطات قديمة وخصومة أطفال إليها الآن وهي في الثلاثين، فتجتر حديثاً جرى على رصيف المدرسة حين عرّفت بها ابنة عم قائلة، «هاي بنت عمي، بس ما تشبهنا، أمها هندية».

لم تفهم سلمى أنها يجب أن تُعرّف بجنسية والدتها، حتى شجارها مع صغيرات أخريات وتكرّر اللقب الذي فهمت لاحقاً أنه شيء يشبه الشتيمة، يعرّفها بكونها أقل شأناً. لم تفقه يومها أن والدتها التي تشبه الممثلات اللاتي تحبهن، وتهوى تشمم رائحة البخور في شعرها الطويل، شخص يمكن أن تعيّر به، أو سر سيئ ينبغي إخفاؤه

عن الجميع. لم ترغب هي في أن تكون مختلفة عن بنات عمها. كان أبناء العمومة الذكور أكثر قرباً لأن الغيرة لم تكن حاجزاً بينها وبينهم. لم يكن الأمر هو نفسه مع مروان، الصبي الذي وجدوه غرائبياً بالتصاقه الزائد بوالدته، وحديثه بلغات لم يعرفوها، حتى اضطرت والدته إلى إبعاده عن أبناء عمومته، بعد أن وجهوا له كلمات نابية. قلت زيارات مروان لبيت الجدة، بينما ظلت سلمى على التصاقها بجدتها.

كان اتفاق الأطراف دون اتفاق على الرفض، يحيّر سلمى. أرادت أن تساندها والدتها، لكن كل اتصال بها، يعيد إليها ذكرى سيئة من طفولتها أو مراهقتها، عن خجل شعرته وهي تعرّف بها صديقاتها، مضطرة. صدقت مع عبدالملك بعد أن أخبرها أن والدته من بلد عربي آخر، فأخبرته هي أن أمها أيضاً من بلد آخر. لم يستوقفه هذا التفصيل وهما يبدآن قصتهما، تقبّله ولم يرفض نصفها الآخر لأنه لم ير فيها الجزء الملون فقط. ظنت أن مأساة الاختلاف قد انتهت. ها هي سترتبط مثل أمها برجل تحبه، ها هي الحياة تتغير، فتصير مثل الفتيات في الجامعة، وتعيش قصة حب مع رجل من برج قرأت عشرات المرات أنه الأكثر ملاءمة لبرجها.

قالت أمها: أنا أريد سعادتك، ثقي أن رفضي للخطبة ليس رفضاً لسعادتك. أنت قطعة قلبي الأغلى. تنفست سلمى بارتياح، ابتسمت لوالدتها وأغلقت عينيها. استسلمت للحظة حنونة رغم التلاطم في رأسها. غفت، أيقظتها والدتها برقة، «اذهبي إلى سريرك، ستؤلم الصوفا ظهرك».

نهضت سلمى متثاقلة، صعدت الدرج ببطء. بدا الوقت لها متأخراً، إلا أن الساعة الدائرية القديمة المعلقة في منتصف السلم، أشارت إلى العاشرة والربع. فتحت باب الغرفة، تناولت ريموت المكيف، متسائلة من يا ترى أطفأه؟ أشعلته ثم أغلقت المصابيح. تناولت الهاتف، فتحت تويتر، تصفحته قليلاً، لم يمهلها النعاس، فنامت.

16

نهضت سلمى قبل أن يرن المنبه، صلت، ثم استحمت. أخذت وقتها وهي تجفف شعرها، ثم تلفه في الخلف. تحب إسدال شعرها، وتجبرها الرطوبة على رفعه. لديها إجازة مرضية لثلاثة أيام، لكنها تشعر أنها بخير. بحثت عن هاتفها، وجدته على الأرض، بطاريته ميتة، وصلته بالشاحن. ابتلعت كبسولات الفيتامينات التي وصفها الطبيب، وابتلعت شربة ماء بعد كل واحدة. تساءلت ماذا ستفعل اليوم؟ ثم قررت الذهاب إلى جدتها وقضاء اليوم عندها.

وصلت سلمى إلى بيت جدتها التي كانت متوعكة بعض الشيء، تفقد وعيها بالمكان والزمن. جلست بجانبها على السرير الذي أصبح يتوسط المجلس، كي لا تتنقل بين غرفتين في مرضها. وتكون بصحبة زوارها من الجيران. كان سمع الجدة قد خف، وترفض وضع السماعة. لكنها اليوم، ما أن رأت سلمى حتى طلبت منها أن تضعها لها.

فتحت سلمى الدرج وأخرجت ذاك القرص الصغير الذي يعيد إلى العالم أصواته، شبكته بأذن جدتها وملست على رأسها. اقتربت الجدة منها تريد أن تسرّ لها بأمر، همست خجلة: اليوم سيأتي خاطبي،

أريد أن تحني لي شعري. ابتسمت سلمى مطمئنة، ثم أومأت موافقة. كانت لا تحب أن تصحح لجدتها حين تمتزج ذاكرتها بالأشخاص والأزمنة. أمسكت بيديها وأخذت تقبلهما. نادت الممرضة وطلبت أن تحضر لها حناء لتحني شعر جدتها.

غابت الممرضة وعادت بصينية نحاسية عليها أغراض الحنة، مشط بأسنان غليظة، وعاء نحاسي، غطاء الشعر البلاستيكي، وعلبة حليب النيدو التي خزن فيها الحناء المطحون، وملعقة. طلبت منها أن تحضر الليمون المجفف، لكن الممرضة لم تعرفه. ذهبت سلمى إلى المطبخ تبحث عنه، وجدته أخيراً في صرة، في أحد الأدراج. ضاقت بالإهمال الواضح في ترتيب المطبخ، وقررت أن تعود لاحقاً لتلقن المساعدات درساً. تطايرت رائحة الحناء من العلبة المملوءة على آخرها وهي تفتحها، مستخدمة الملعقة خوفاً على أظافرها، عيرت بفنجان القهوة، خمسة مقادير صبتها في الوعاء. أذابت الليمون في الماء الدافئ، ثم هرسته بيدها بعد أن لينه الماء وتغير لونه إلى البني الكدر، صفته من البذور والقشور البنية، وأضافته على مهل إلى الدقيق الأخضر. خلطت سلمى العجين كما علمتها جدتها، حتى صار بقوام متماسك، ووضعته جانباً لبعض الوقت، ليتخمر.

تناولت المشط ذا الأسنان الغليظة، وبدأت تمشط شعر الجدة. فرقته نصفين، احتفظ شعر جدتها بغلظه ولونه، مازال أغلبه أسود داكناً، ما عدا الخصلة البيضاء التي تلتف من الصدغ الأيمن إلى نهاية الشعر،

كأنديرا غاندي. حكت لها جدتها أنها لم تولد بهذا اللون، لكن امرأة بشعر مبلول زارت والدتها وهي في النفاس بعد ولادتها بثلاثة أيام، فماتت أمها متأثرة بالحمى، واصطبغ شعر خصلة الوليدة بالأبيض حزناً.

كان شعر جدتها شديد الجفاف، كلما لامسه المشط، أحدث ذلك الصوت الذي تسميه العجائز صراخ الشعر. قالت لها جدتها: شعري يصرخ، أمي ما دهنته. طمأنتها أنه سيكون أفضل بعد وضع الحناء. قسمته سلمى إلى وحدات أصغر، وأحضرت العجينة، أخذت ملعقة منها وفردت الخليط عليه، خصلة، خصلة. وكلما انتهت من واحدة، أضافتها إلى البقية المحناة. لم تلبس سلمى قفازاً ككل مرة، أرادت ترك شيء من اللحظة الراهنة على يدها.

حين انتهت، سألت جدتها: كم ساعة يجب أن ننتظر قبل غسله؟ ثم أردفت: ساعة تكفي، فزوجي سيأتي بعد ساعة.

باغتتها جدتها وهي تخبرها عن ابنة عمها المسكينة، ذات الحظ السيئ التي أصبحت عجوزاً ولم تتزوج. صححت سلمى لجدتها: خلود أصغر مني بسنة. احتدت عليها الجدة: لا أكبر منك، أحيد يوم ولدتها أمها، أبوك بعده لم يتزوج والدتك. تذكرت سلمى ذاكرة جدتها الانتقائية وأن الجميع يكبر في نظرها، إلا هي. ابتسمت وسألت جدتها ماذا سترتدي في خطبتها. فأجابتها:

- «المرية وبالشوك وفتخ، بس خبري العقاصة أن تأتي، وهاتو لي حلوى من سوق الذهب، تراني أعرف أفرق، لا تفضحونا قدام العرب».

ضحكت سلمى، واتصلت بوالدها تخبره بما تقوله الجدة. تحاول أن تخفف الفتور بينها وبينه. ستوصي والدها فعلاً بأن يأتي بحلوى من سوق الذهب. كان خالد يخرب نظامه الغذائي بين فترة وأخرى، بسبب هذا الطعم المسترسل بالسكر المطبوخ الذي يصير كالهلام. حلوى هذا المحل القديم إحدى ذكريات العيد في طفولته. في بيتهم القديم في الراس، البيت الذي ما زال يتذكره بحسرة، بعد أن هدم سريعاً، وعمرت مكانه طوابق لا تعرفها ذاكرته.

غسلت سلمى شعر جدتها، وحممتها، وضعت مخلط مخمرية خلف أذنيها، زادت طيباً مع رائحة الحناء الطازجة. لطخت قميصها البولو الذي لن تستطيع ارتداءه ثانية. «فدوة لعيونها» قالت لمروان، بعد أن اتصل يسأل عنها، ويقول لها إنه سيمر ليطمئن عليها. أجابت أنها بخير ولا داعي لمجيئه، لكنه أصر، فأردفت:

– «أحياناً تنسى من الأكبر يا ولد».

– «لدي خبر، إن رأيتك سأخبرك عن نوع الجنين، أهو بنت أم صبي».

– «تستطيع أن تخبرني الآن».

– «وأضيع فرصة أن أرى ردة فعل وجهك حين تعرفين، لن أفعل، عودي إلى المنزل ونلتقي بعد ساعة. لا أريد أن أتأخر كثيراً».

– «خايف من الحكومة».

– «كلا فبهجت ستقضي النهار عند والدتها، لكني أريد أن أستمتع

بيوم من الحرية، وأن أرى أصدقائي، أن أرى بشراً ونساء لسن حوامل. زيارة العيادة المقدسة أنستني كيف تكون الأنثى دون هذه الكرة في بطنها. حتى زميلاتي في الدوام كلهن حوامل، كأنه فيروس. قهقهت سلمى خاتمة المكالمة بقولها: أنت فقط لم تلاحظهن إلا الآن، شيء طبيعي، سأراك بعد ساعة.

17

عندما حان وقت الغداء، تذكرت أنها لم تصلِّ الظهر بعد. دخل مروان فقالت له أصلي، وأنزل، لكنه لم يرغب أن يؤجل الخبر أكثر من ذلك، فلحقها إلى غرفتها. قالت له: حسناً لن أصلي، سأذهب للحمام، هيا اخرج، فغادر ودخلت هي الحمام، تمسحت وصلت. حين انتهت، بعثت رسالة ترد بها على خالد، ثم خرجت إلى الصالة.

أمها مع مروان على سفرة الغداء، قال لها: لن تعودي أنت الفتاة المقدسة للبيت، بهجت حامل ببنت. فرحت الأم وباركت له. بينما قالت سلمى: الآن يجب أن أبحث عن اسم جديد. قال لها: قررنا، سنسميها على اسم جدتي رحمها الله، آسيا، أحب هذا الاسم كثيراً وكذلك بهجت تحبه، هو من الأسماء المذكورة في القرآن، لا أجمل من ذلك. تضاعف فرح الأم بقراره، لم تجد سلمى شيئاً لتقوله، اسم وجدته جميلاً حتى وإن كان اسماً لا ينتمي إلى الأسماء الأموية، وتقول الويكيبيديا عنه إنه يعني الشرق.

انتهت سلمى من تناول الطعام، فطلبت لها أمها عصيراً، ومنعتها من شرب الشاي. اعترضت لأنه كان شاياً أخضر. «أخضر أم أزرق،

الحديد لديك منخفض، اسمعي الكلام ولو لمرة واحدة»، ردت الأم على اعتراضها. هل حقاً أنا لا أستمع إليها أبداً؟ تساءلت سلمى في سرها، أنا لا أقصد، أريدها أن تعرف ذلك.

همت سلمى بالنهوض، فأصرت والدتها أن تتناول الفيتامينات أمامها، وتشرب العصير. امتثلت وتناولت الأدوية أمام والدتها، لكنها لم تستطع أن تشرب عصير الأفوكادو الذي لا تحبه.

ذهبت سلمى إلى غرفتها، استحمت، وكررت غسل يديها من الحناء. اصطبغت يداها بلون برتقالي زاد عما توقعته. وضعت رأسها على الوسادة، وتناولت الكتاب الذي تتصفح الصفحات نفسها فيه، دون أن تنهي قراءته. لم ترغب في أن تستسلم لحوار جارح مع حنان، لكن كلامها كان حقيقياً لأبعد الحدود.

هل حقا استفادت من هذا الذي صنفته نصفاً يظلمها؟ ربما. لم تشعر بأنها مدينة لوالدتها بالعالم الملون والمختلف الذي ترعرعت فيه، وبالحرية التي غبطتها صديقاتها عليها. حرية السفر، والتخصص والجامعة. قفزت سلمى بحرية، حرمت منها نساء يكبرنها سناً في عائلة والدها.

بعثت إلى بهجت رسالة تهنئة، ما زالت لم تجاملها بهدية. لا تعرف هل تُهدى المرأة لأنها حامل أم لا. قررت أن تسأل والدتها، فنزلت إلى الصالون، لم يكن أحد في المنزل، يبدو أنهم خرجوا دون إعلامها.

طلبت من إيما فنجان قهوة تركية. كان الجو ملائماً للجلوس في الحديقة. بدأت تكتب في مدونة لم تخبر عنها أحداً:

أين تذهب الحكمة حين تشعر بالظلم؟ الله لا يتركك، لكنك تترك نفسك. ها أنا أواجه نفسي بعد خمسة وثلاثين موسماً في المنفى. لا أعرف كم خضت في ذلك الموقف وتلك الكلمة، وجدتي تكرر الغريبة. والغرابة، والواردة، كل الألفاظ التي جعلتني أختارها. صاحبة القصائد. مالكة النوق والدبش التي وهبتني إحداها وأنا طفلة تنظر إلى هذه المخلوقات فتفتن. لا أذكر رؤيتي لدجاج في بيتنا، عندها رأيت البط والدجاج. أعطتني تلك الهضاب والدعاثير للمشي عليها دون خوف. حملت بيدي فرخ صقر. ولوحت بالتلواح. جدتي الطيبة، أخذتني تحت جناحيها، وطارت بي في عوالم الصحراء، حتى أقترب من الخط الأحمر، من ذكر أمي.

هنا عرفت أن أمي مادة ليست للطرح. تستقبلها كبقية الكنات، لكنها لا توجه حديثاً إليها قط، لا تتصل بها، ولا تأتي إلى منزلنا، إلا إذا مرضت أنا أو أبي مرضاً شديداً. حتى مروان، خارج حسبة الاهتمام. لا أعرف كيف ومتى بدأت أُقصي أمي بدوري، دونما عمد، لكنه ما حصل. توقفت عن التحدث عن أمي في حضرة جدتي، وأعمامي وأبنائهم. كان يتوجب علي قول سرنا إلى مركز الغرير، لا أن أقول سرت مع أمي إلى مركز الغرير. أستخدم فعلاً بسيطاً وقائياً ظهر من طفلة أرادت أن ترضي جدتها، التي أحضرت لها أرنباً وعلمتها كيف

تطلق النار من بارودة وهي في السابعة. جدتها التي تلبسها تحت فساتينها القصيرة سروالاً (بادله) فتبدو مضحكة. طفلة لا تعرف معادلة القوى ولا كيف ترضي طرفاً غير واضح، لا تفهم كيف تغضب والدتها جدتها وهي غير موجودة، ولا تتحدث معها. أحياناً تفكر أن والدتها ربما ارتكبت ذنباً، ربما أخذت من الجدة إحدى نوقها دون استئذان، كما فعل بيدار أحد الجيران فطلبوا له الشرطة، أو ربما أخذت إحدى حمامات عمها محمد. لا تعرف ماذا فعلت أمها، لكن جدتها طيبة. إنها تعاقبها، كما تفعل والدتها معها ومع مروان، حين يكسران شيئاً، أو حين يخبئ مروان صرصوراً في جيبه قائلاً إنه لا يعرف من أين أتى.

لم تدرك تلك الطفلة أن والدتها لم تأخذ سوى فلذة كبد الجدة، رجل رفض العودة إلى الأم بعد أن عرف الحب. وسحرته فتاة ملونة بعينين عسليتين، وشعر غجري، وساري أحمر يظهر خصراً أبيض لا يحمل أي زوائد عليه. امرأة من بلد بعيد مهووسة بالصحراء ومخلوقاتها، تشبه انجريد بيرجمان التي يحتفظ بصورتها في غرفته. كانت حلماً تجسّد على قدمين، ولم يكن من عوائق أمامه سوى والدته التي أرادت له ابنة أخ دميمة، لم ير فيها أكثر من فتاة صبيانية ترتدي جلاليب الصبيان. لم تكبر لتصبح جميلة كالممثلات، ولم يتجمل أي شيء فيها، ففشل الكحل والديرم وطلاء الأظافر في أن يبرز أي أنوثة.

اليوم، تود سلمى لو تتصالح مع تلك الطفلة التي جمدها الخوف من فقد المرأة التي تمنحها هذا الحب المشروط بإخفاء أمها. ما أسهل

أن تقلد القط توم في الرسوم المتحركة، وهو يخفي الحمامة داخل القبعة. ويخرج أرنباً والجمهور يصفق. هي لا تحتاج إلى أمها وهي في بيت الجدة، ولا تحتاج إلى أحد، تستطيع الاستحمام وارتداء ملابسها وحدها. وتقرأ من مصحف الجدة. وتعرف كيف تعجن الحناء الذي تحب أن تضعه على شعرها مثل جدتها. هل فعلاً أحبتني جدتي، إن كان شرطها أن ألبس طاقية لأخفي نصفي؟ كيف يمكن أن تراني جزيئاً لا كُلّاً، وكيف أحببتها أنا دون أن أسأل من أين تأتي جدتي؟

لطالما قالت إن تعداد السكان كان عشرة آلاف في الخمسينات، وأن أيام الجوع، في مطلع العشرينات باع البعض أبناءهم، فهل تكون جدتها بيعت يا ترى، وما الذي ستغيره الإجابة أياً كانت؟

حلمت لأشهر بدفء خالد. أردت أن أتجاوز الخطوط الحمراء وأقبله حين فاجأني بتنظيم حفل لعيد ميلادي، وساعة مضحكة اشتراها من ديزني لاند خصيصاً للمناسبة. رجل يضحكني، يشتري لي ساعة أطفال وباقات ورد بلا مناسبات. تمنيت لو كان أبي كخالد، يحضر لأمي زهوراً على الدوام، ويرسل إليها كتباً من حول العالم.

مر الوقت سريعاً. حين نادتها إيما لتناول العشاء، كانت لا تزال تشعر بالتخمة، فتهربت من الأكل المعد للعشاء، وطلبت منها حليباً وكورن فليكس تناولت منه ثلاث ملاعق. شاهدت فيلماً كانت قد رأته مرتين من قبل، ثم استسلمت للنوم، بعد أن فكرت لوقت كيف تجعل أمها توافق على خالد.

18

نهضت سلمى لتصلي. خفتت الأصوات في رأسها. ستقطع الإجازة المرضية وتذهب إلى الدوام. مازالت تفصلها ساعات عن موعد خروجها المعتاد. بعثت إلى خالد لتخبره بذلك، وذيلت الرسالة بكلمة أفتقدك. لم تكلمه بالأمس، أرسلت رسائل فقط. لن يعتب، يعرف أنها مشغولة هذه الأيام. ما الذي ستفعله الآن، وهي لا تريد أن تقرأ، ولا أن تشاهد التلفاز، ولا أن تمارس رياضة، ولا أن تأكل. لديها ساعتان من الانتظار حتى تبدأ اليوم، كما بدأته قبل عشر سنوات. أيوجد يوبيل للعشر سنوات كي تحتفل به مع صديقاتها؟ بمطلق الأحوال، ستحتفل معهن بخطبتها قريباً، وسترقص على أغنياتها المفضلة، خصوصاً تلك التي لا تستطيع أن تسمعها دون أن ترقص. ابتسمت لفكرة الرقص، ضبطت المنبه على السادسة، وعاودت النوم.

صحت بعد رنتين، فأطفأت المنبه. دخلت الحمام، حملقت في وجهها المصفر، عيناها ذابلتان. عصرت معجون الأسنان على الفرشاة الكهربائية المستديرة، باعدت شفتيها إلى أقصى حد، وبدأت تنظف أسنانها. دندنت، فتشردقت بالمعجون. أنبت نفسها على فعل شيئين في اللحظة نفسها، ثم غسلت وجهها.

بعد أن أخذت حماماً سريعاً، شعرت بحيوية ضاعفتها رائحة مزيل الرائحة ثم الكريم المرطب بشذى المسك الذي وزعته على ساقيها وذراعيها. في غرفة تبديل الملابس. ارتدت فستاناً بلون الكركم، حفرة صدره متسعة قليلاً، فخلعته. لبست لباساً داخلياً من اللون نفسه ليغطي نحرها، وعاودت ارتداء الفستان. هكذا أفضل، تكفينا بضائع ثريا.

هبطت إلى غرفة الطعام، قشرت بيضة مسلوقة، وضعتها في قاطعة بلاستيكية حولتها إلى شرائح. رشت فلفلاً أسود وملحاً عليها، أكلت شريحة تلو أخرى، ثم لعقت شفاهها العلوية من أثر البهار. غسلت يديها لتتخلص من رائحة البيض. قبل أن تخرج باتجاه سيارتها، وهي تنادي إيما، «My coffee»، وافتها إيما بالقهوة في فنجان أبيض طويل، بغطاء بلاستيكي بني اللون، ابتاعت مثله لعبدالملك. حملقت سلمى في الفنجان، من أين أتت به؟ كان ضمن أشياء تخلصت منها.

كان الطريق أمام سلمى خالياً. خمسة كيلومترات أخرى تفصلها عن الجحيم. لمست شاشة التحكم تغير الإذاعة، تبحث عن موسيقى كلاسيكية. مرت على برنامج البث المباشر، فأغلقت الراديو. اختارت أغنية «يا أعز من عيني» لليلى مراد، من الآيبود. مرت إلى يسارها سيارة كالصندوق بلون أزرق نيلي يصعب تجاهله، وزجاج شديد العتمة جعل معرفة السائق مستحيلة. حملت لوحه السيارة رقمين، ما أوحى أن السائق يسابق الساعة لحضور شيء مهم، أم أنه شخص يرى أنه مهم. أضاء فلاش الرادار، فأغمضت سلمى عينيها منزعجة،

خير إن شاء الله. اتجهت إلى أقصى اليمين، خففت من سرعتها وهي تدخل لعبة الصبح. يرعبها التلاصق. في كل حوادثها المرورية، سيارة تصدمها من الخلف. على يسارها، شارع مزروع بالرادارات والنخيل، وزهور تتغير مع المواسم. سربت نوافذ المكيف إليها رائحة الحشائش التي جزت قبل قليل من عمال البلدية. تعجبها هذه الرائحة التي تأخذها لرمال البر المبللة بالمطر، في مخيم جدتها الشتوي. أشعرتها المطبات المتناهية الصغر أنها تمشي في شارع غير مرصوف. تناولت اصبع الحمرة وأعادت طلاء شفتيها، بعد أن التصق اللون بكوب القهوة. وصلت بعد دقائق، أوقفت سيارتها في الموقف المخصص لها، كانت المواقف شبه خالية كالمعتاد.

دخلت إلى مكتبها. وجدت زهور الأسبوع الماضي وقد ذبلت، فأخرجتها من المزهرية. إلى سلة المهملات. لم يطل الوقت على المزهرية فارغة، إذ وصلت بعد أقل من ساعة باقة جديدة مع بطاقة مذيله بكنية خالد.

رن الهاتف، نظرت إلى ساعة يدها، الثامنة إلا خمس دقائق. الوقت مبكر لهاتف من العمل. ظهرت صورة والدتها على الشاشة. أجابتها. أثنت والدتها على تناولها الفطور ذاك الصباح، طلبت منها أن تأكل سلطة أو شيئاً مفيداً في وقت الضحى، وأخبرتها أنها ستحضر لها منشوري الدجاج الذي يعجبها على الغداء. ستعده بنفسها حتى يكون خالياً من التوابل التي تزعجها. لكن سلمى طلبت منها إعداد طبق

«المضروبة» بطريقة جدتها. «تم، مبسوطة انك أكلت حبيبة قلبي»، أنهت والدتها المكالمة.

بدأت تقرأ البريد الذي تراكم في يومي غيابها. تأخرت كثيراً في إعداد تقرير تقييم الموظفين الذي يجب أن تسلمه إلى الموارد البشرية، بعد توقيع كل موظف عليه. تكرهه، لا يخرج أحد من هذه العملية مرتاحاً، أكان رئيساً أم مرؤوساً.

فاجأها خالد بحضوره إلى المكتب. حين أخبرتها السكرتيرة، خرجت تستقبله. تقاربه الطول اليوم لأنها تنتعل كعباً عالياً جداً. جلست خلف مكتبها، وخالد على الكرسي الأيسر مقابلها. حركت المزهرية إلى الخلف كي لا تحجب رؤيته. وصل سائقه خلفه حاملاً كوباً من قهوتها المفضلة، وعلبة حلوى تضعف أمامها. تناولت الفنجان من السائق. وفتحت علبة الحلوى تضيف خالد. اعتذر وهو يقول أنه لا يأكل الحلوى بحضرة الأحلى. احمرت خجلاً، لكنها امتلأت غروراً في الوقت نفسه. عبق المكان بعطره. تكره العطور الشرقية القوية. لكن عطره جعلها ترغب في تجاوز المتر ونصف المتر من الخشب المصبوغ بالأبيض، والالتصاق بصدره. يبدأ بنفحة خفيفة من رائحة سيجار، وينتقل إلى توابل لا تعرف اسمها، وينضج بعبق عنبر وعود برائحة خفيفة. لا يشبه أريج العود الهندي. هو أكثر هدوءاً وتناغماً مع العنبر، ربما كان عوداً من بورما.

أخبرها خالد أنه سيسافر ليومين في مهمة عمل. طُرق الباب قبل

أن ترد، كانت ثريا تمد مخالبها نحو خالد. استقر بؤبؤاها على عينيه، فسحب كفه مبتسماً. ينقل نظراته بينها وبين سلمى، وسلمى بدورها تنظر إليهما بصمت، حتى انتبهت، فعرفت بها وبه. هزت ثريا كتفها الأيمن إلى الأمام، وعادت خطوتين إلى الخلف، لتجلس على الكرسي المقابل له، واضعة ساقاً فوق الأخرى، وإصبعاها الشاهد والأوسط يلفان أطراف وصلة الشعر المنسدلة على كتفها الأيسر. أمرت ثريا سلمى أن تطلب لها شاياً دون سكر، وأردفت أنها تحاول أن تخسر بعض الوزن، لأناقة السفر. جاملها خالد. رشيقة ما شاء الله. ضحكت وهي تنتصب واضعة يدها اليمنى على وركها، واليسرى على خصرها، كأن كاميرا ستأخذ لها صورة. دارت نصف دائرة، تستعرض تقوساتها الممكنة، واقتربت منه. «والله؟. لكن زوجي يريدني أن أنحف أكثر»، وضحكت.

تظاهرت سلمى بطلب الشاي، وأرسلت إلى السكرتيرة رسالة هاتفية، «أنقذيني منها». دخلت السكرتيرة تعتذر للمقاطعة: مدير الإدارة يطلب الأستاذة ثريا. «مثل ما تشوف خالد حبيبي ما شيء يمشي في الإدارة بدوني، مضطرة أستأذن». تعلقت الأعين بها وهي تخرج، لكنها عادت مبتسمة، «نسيت أعطيك بطاقتي»، ومدت يدها بالبطاقة إليه. تناولها شاكراً، واعتذر إليها بأنه لا يحمل بطاقة.

بعد أن أغلق الباب الزجاجي، نظر خالد نحو سلمى: توقعتك تبالغين بخصوصها، كيف تعينون هذه الأشكال؟ فردت سلمى، «قبل

دقيقة، كنت تبتسم وتتغزل وكأني غير موجودة». «فديت الي يغارون. أجاملها لخاطرك لا أكثر، أهي قريبة لأحد المسؤولين»، سأل خالد، فلوت سلمى شفتيها ورفعت حاجبها، «لا، لكنها قرابة من نوع آخر». ثم اتهمته بتعمد إثارة غيرتها، وأنه لم يجاملها هي التي توشك أن تصير خطيبته رسمياً، فاعتذر بأنه لم يقصد وأن ثريا قاطعتهما قبل أن يسألها عن أخبارها. بقي زهاء عشر دقائق، ثم انصرف.

عادت سلمى تنجز مهامها. قدمت الإجازة المرضية على النظام الإلكتروني، وطلبت إجازة ليوم الخطبة المحدد. كان نهارها خالياً من الاجتماعات، فهاتفت ميثاء تعزمها على سلطة فواكه. لم تلبث طويلاً حتى سمعت خطواتها في الممر، وصوت ارتطام حديد بالأرض. سألتها حين دخلت، ماذا تنتعلين في قدمك؟ أجابتها: للأسف، حذاء جديد أنتعله للمرة الأولى وأكيد الأخيرة». استفسرت ميثاء عن العطر الذي ما زال طازجاً في المكتب. حكت لها أن خالد الجارف زارها وغادر قبل قليل. لم تمنح أي تفاصيل، شككت ميثاء في المؤشرات التي منحها صوت سلمى وهي تنطق الاسم، لكنها لم تتطفل أكثر.

سرقهما الوقت وميثاء لا تكف عن اجترار إحباطاتها ورغبتها الأزلية في الاستقالة. أنصتت سلمى إليها دون أن تناقشها. تعرف أن صديقتها ترتكب الخطأ تلو الآخر، مديرها يمررها لها بصدر رحب، وأنها تدمن الشكوى.

19

تأخرت سلمى ربع ساعة بعد انتهاء الدوام. لسوء حظها، علقت في ازدحام سببه حادث على الجهة الأخرى من طريق العودة. استغربت أن الجهة التي بها الحادث لم تزدحم. ضغطت على زمور السيارة عدة مرات، تحث السائق الذي أمامها والمشغول بالتصوير، على الإسراع. تجنبت النظر باتجاه الحادث، خوفاً من رؤية دماء أو أسوأ. ظلت تدعو اللهم سلم، اللهم سلم، حتى تجاوزت المكان، وعاد الطريق رحباً.

عرجت على محطة وقود، أوقفت سيارتها أمام الميني ماركت، دخلته واتجهت إلى الثلاجات. تناولت زجاجة ماء باردة، وآيس كريم سوربيت بنكهة الفريز، ثم راحت إلى آلة سحب النقود. فتحت حقيبتها، أخرجت البطاقة من المحفظة، أدخلتها في الآلة، وضغطت على الأرقام السرية. اختارت المبلغ، تناولت المال والبطاقة والإيصال، نقدت البائع، وعادت إلى السيارة. انطلقت. مزقت غلاف الآيسكريم الورقي، وسرعان ما أنساها طعم السوربيت البارد، مدفأة الشارع. ثوان في الشمس تصيبها بالصداع وتزيدها تعاطفها مع العمال الغارقين في حموتها.

هاتفت خالد وأخبرته بلهجة يكتنفها التعالي أنها ليست غاضبة مما حدث اليوم في المكتب، وطالبته ألا يتغزل بأخرى في حضورها أو غيابها. تؤدي دورها في مسرحية الرضا، وهي لا تصدق نفسها. فتح خالد معها موضوع السكن، وبدا جاداً وهو يسأل إن كانت تفضل منزلاً قريباً من والديها. لم ترد، فكرر السؤال، قالت إنها لم تفكر في الموضوع بعد، وطلبت أن يمهلها بعض الوقت.

انتهت المكالمة وهي تتساءل كيف أنهما لم يتحدثا في الموضوع من قبل. ذابت قطرات السوربيت على يدها الممسكة بالآيسكريم، فتناولت محرمة من العلبة المربعة التي استقرت على الكرسي المحاذي لها، ومسحت اللون اللزج عن يدها اليسرى، وعن عباءتها السوداء. مر لقاء الصباح بخاطرها. استغربت عدم شعورها بالغيرة وثريا تستعرض جسدها بحركات مدروسة أمام خالد. تحول إيحاءات ثريا الأجواء المهنية باستمرار إلى ما يشبه أجواء التواجد في ماخور.

وصلت البيت. ضغطت على زر الريموت فلم يفتح الباب. ضغطت على المنبه، لكن أحداً لم يأتِ. هاتفت والدتها فأرسلت إيما. حيت والدتها وخلعت العباءة ورمتها على الأريكة. رمقتها الأم باستنكار، فعادت والتقطتها وعلقتها أسفل الدرج.

جلست مع والدتها الى السفرة، سألت عن والدها، فأجابت أنه غائب. غرفت لها والدتها من المضروبة التي أعدتها لها كما تعدها حماتها، مبهّرة وتظهر حموضة الليمون المجفف فيها بلا حياء. كل

ما على السفرة، تحبه سلمى. تناولت نصف الليمونة التي تزين طبق الفتوش، وعصرتها على طبق المضروبة، وأكلت بشهية، كأنها لم ترتكب اثم تناول الآيسكريم قبل الغداء.

بعد الغداء، جلستا في الصالة، الأم تشرب الشاي وتشاهد إعادة لأحد المسلسلات المدبلجة، بينما سلمى تتصفح ما نشرته صديقاتها على صفحات التواصل الاجتماعي، وتجيب عن أسئلة ابنة عمها عن الخاطب.

تناولت حقيبتها تهم بالصعود إلى الأعلى، فسألتها والدتها عن الريموت المعطل. فتحت حقيبتها تبحث عنه، «إنه في السيارة»، قالت، ثم ناولتها مفتاحها. أمرت الأم إيما بأخذ الريموت من السيارة وبتكليف السائق بتغيير بطاريته.

ولجت سلمى الغرفة وقد حان أذان العصر. غيرت ملابسها وأرخت شعرها المرفوع منذ الصباح. لم تتوقع زيارة خالد اليوم، وإلا لكانت تركته مسدلاً. يناكفها دوماً إن كان شعرها باروكة، وتشاكسه أن عليه أن يزرع شعراً قبل العرس. ألح عليها هاجس عدم غيرتها. أتشعر بالغيرة وتنكرها؟ أم لأن ثريا امرأة رخيصة؟ أم أنه حقاً شعورها بأمان مطلق مع خالد؟

20

مر غدها يكتنفه الهدوء. في المساء، استقبلت أمها صديقات لها، بينما خرجت هي لمشاهدة فيلم قبل حضورهن. كانت وحيدة. لم يعجبها الفيلم لكنها أكملته، مع صحن من الناتشوز، وشرائح الهالابينو الحارة، وكوب من البيبسي التي مازالت أمها تنفعل وتعارض وجوده على سفرة الطعام في البيت.

حين عادت كانت صديقات والدتها قد انصرفن، وإيما تنظف الصالة، وعبير شموع الفانيلا تملأ المكان. فاح دخون فرنسي جديد لم تشتمّه من قبل، فطلبت من إيما أن تبخر ملابسها به غداً. كان أكثر ما تحبه سلمى في المنزل الذي تراه مزعجاً كثير البهرجة، تَسلل عطر مختلف إليها من كل زاوية. العطور كانت من الأشياء التي تجمع بين عبدالملك وأمها. سألتها إيما هل تضع لها عشاء، فأجابتها أنها لا تشعر بالجوع. قالت إيما بعربيتها المكسرة: «أنت ما تأكلين وبعدين سيري مستشفى، بيبي أنت بيبي». ضحكت سلمى ولم تخبرها بكل ما أكلته قبل قليل. حتى إيما تؤنبها.

وجدت في هاتفها اتصالات من حنان ومروان وخالد. هاتفت

خالد، ثم مروان، وأرسلت تعتذر لحنان. طرقت إيما الباب وسلمى تصلي، فكبرت بصوت عال لتأذن لها بالدخول. وضعت إيما الحليب على المنضدة وخرجت. اقتحمت رائحة الهال والزعفران الغرفة، فتناولت سلمى كوب الحليب، أزالت الطبقة الرقيقة التي تمددت فيها مياسم الزعفران باسترخاء، وشربت قليلاً من الخليط الأصفر الذي ذكرها طعمه بالآيسكريم الإيراني المعروف بالبستني.

غسلت أسنانها وارتدت بيجامة قصيرة بلون بصلي. أطفأت مصابيح الغرفة، وأشعلت المصباح الجانبي، تتصفح صفحات صديقاتها. أطفأت الإضاءة الجانبية. وعت أنها تكذب في دعائها لنفسها بالزوج الصالح، وهي تسجد فوق سجادة تسبح في عطر اختاره هو. أشعلت الإضاءة ثانية، تناولت زجاجة العطر من على التسريحة، ورمتها في سلة القمامة. عادت تكمل حوارها مع الصديقات كتابة، حتى نامت.

استيقظت سلمى على باب غرفتها يُطرق، فتحته. والدتها توقظها بعد أن استبطأتها في النزول. نسيت أن تخبرها بأنها ستتأخر بسبب اجتماع. اطمأنت الأم ونبهتها ألا تمشي حافية كي لا تؤذي عظامها وكعبي قدميها. أغلقت الباب، أمها على الصبح!

حين وصلت إلى السرير، تحسست باطن قدمها الباردة، وكعبها خشن الملمس. استعدت للخروج. دعت أن لا تعلق في الزحمة، لكنها علقت، وهي تستمع إلى أغنية تحبها لفيروز وتنظر إلى شاشة الهاتف

كل قليل. قررت تغيير الشارع. لا بد أن حادثاً قد وقع وسبب كل هذا الزحام، فهذا ليس وقت الذروة. ما قصة الحوادث والزحمة معها هذا الأسبوع؟ ذهبت إلى شارع آخر كان شبه خال، فضغطت على دواسة الوقود تزيد سرعتها. أرسلت تذكّر حنان، «موعدنا اليوم».

وصلت إلى وجهتها، متأخرة زهاء ثلث ساعة. وجدت رئيس الاجتماع جالساً، فحيته وجلست إلى يمينه. اعتادت أن لا تعتذر عن التأخير. تأخر بقية الأعضاء، مكررين العذر نفسه. تململ الرئيس، «أنا وسلمى وصلنا في الوقت المحدد». ابتسمت لكذبته. يبدو أنه سبقها بدقائق فقط. عرضت أهم المنجزات، وأسهبت في المخاطر المحتملة بسبب قرار تغيير مكان عقد المنتدى الذي لم تفهم سببه.

قال لها الرئيس، «أعطيني حلاً». اقترحت جمع الشركات والجهات المعنية، مع الفندق، واستخدام برامج الطيوف ثلاثية الأبعاد، للقاعات التي لم تجهز بعد، توفيراً للوقت، وللالتفاف على أخطاء التصاميم الورقية. سألها أن تنفذ الاقتراح، ردت بعدم استطاعتها لانشغالها. وجه ذات الطلب إلى البقية، فتطوع أحدهم.

استعرضت سلمى مؤشرات أداء اللجنة، واقترحت إضافة عضو. أُقر المحضر، وتفرق الجمع. حملت حقيبتها تهم بالخروج، لكن بو سعيد استبقاها وسألها عن سبب اعتذارها عن تنفيذ اقتراحها. أوضحت أن لديها مهام ونقصاً في عدد الموظفين. سألها عن رأيها في الانضمام إلى فريق العمل لديه كموظفة، فاستفسرت عن الوظيفة التي

يعرضها تحديداً. «أريد إدارة للابتكار ودماء شابة، لدي كوادر ذات خبرة، ينقصها التجديد». لم تتحمس وهي تخبره أنه ليس مجالها. طمأنها بأنها ستؤسس وحدة إدارية جديدة وأن شركة استشارية عالمية ستعمل معها لوضع الأطر العامة وتصميم العمليات والهيكل. ردت بأنها ستفكر وطلبت بعض الوقت. طلب منها إرسال نسخة حديثة من سيرتها الذاتية. «يذاع أنك لا تدعم العنصر النسائي في فريقك»، قالت، فسألها إن كان هذا ما تلمسته. أحرجها غباء جملتها، لم يتريث وأكمل، «أختار قيادات، الموظفون في كل مكان».

رفع معنوياتها العرض الجديد، لكنها أرادت مهام أكثر وضوحاً، ومنصباً مؤكداً، فقد شربت مقلب التأسيس مرتين، ثم عُين في المنصب من يدنوها خبرة وموهبة، ويفوقها وساطة. لديها الآن ما هو أهم من الوظيفة الجديدة. هاتفت حنان تسألها أين كانت؟ أجابتها، «أنتظر اتصالك». ضحكت سلمى، «ماذا تعني إجابتك الكاذبة؟». اعترفت حنان أنها ما زالت في المكتب. أخبرتها سلمى أنها ستسبقها إلى المطعم الصيني، فاعترضت الصديقة لأنها تشتهي أطباقاً إيطالية. اقترحت مطعماً، فوافقت سلمى على مضض. لطالما تناولت الطعام مع عبد الملك في ذلك المطعم، قبل أن يفترقا على موعد لا يحين. لربما تصالحت مع جغرافيا المكان بفضل ذكرى جديدة.

21

في المطعم، اختارت سلمى الجلوس على طاولة بعيدة عن الباب، وعن طاولتها المعتادة مع عبد الملك. التصقت بالنافذة كي تحافظ على شعور أنها خارج المكان الذي خذلت فيه. أطلت على النافورة الراقصة تتأملها، فتراءت لها حبال المياه كراقصات باليه يتمايلن على إيقاع لا يسمعه أحد، فيما الألحان في المحل تطغى على ما تناهى إليها من الموسيقى خارجه. لم تلمس قائمة الطعام التي تحفظها عن ظهر قلب، وطلبت من النادل عصيراً. سرت كهرباء في كتفيها، ثلاث سنوات مرت، أكثر من ألف يوم وليلة منذ آخر لقاء. تساءلت ماذا طلبت يومها؟ غابت التفاصيل شيئاً فشيئاً، غابت ملامحه، سرها أنها لم تشعر بحزن، بل بفراغ لا شكل له، لا رائحة ولا لون. ربما تصالحت مع المكان وبقي أن تتعايش مع الزمن. جاءها صوته وهو يطالبها أن تلحف رأسها. يعيد عليها الطلب كلما رآها، دون كلل، كأنه جهاد مقدس وخصلاتها شياطين تتحرك لتجلده. كانت تستسلم حين يلح، وتخبره أنها تفعل ذلك أمامه فقط. بررت له خياراتها، وسألته من منحه هذه السلطة، ولماذا هو مهووس بشعرها، هذا الشيء الميت

الذي لا يحس، لا يبرد، لا يشعر بالحر، لا يتألم إن قُصّ، فقط يزيّت كشيء قبيح إن مر يومان دون غسله.

حضرت حنان، متوهجة ومتأنقة، فبدت أكثر رشاقة. سألتها سلمى عن سر تحوّلها هذا، فأجابتها لا سر، ثم طلبت عدة أصناف من الطعام، تضمنت طبق عبدالملك المفضل، باستا بحرية بالصلصة البيضاء. حاولت سلمى أن تثنيها عن خيارها لئلا تخرب رشاقتها، لكنها لم تتراجع.

حين غادرتا، كانت لدى سلمى ذكرى جديدة وطيبة عن هذا المطعم. دخلت الصديقتان عدة محلات. لم ينل أي فستان استحسانهما. كلما جربت قطعة، علقت حنان: هذا طويل جداً، قصير، أو عارٍ، قبل أن تقترح عليها ارتداء الزي التقليدي، مبررة أنه الخيار الأسلم، إذ من غير الملائم الظهور بفستان قصير أو ببنطلون أمام امرأة متقدمة في السن. اقتنعت سلمى، وعرجتا على محل يبيع القفطان المغربي حيث قاست أربعة منها قبل أن تستقر على واحد أبيض اللون، مطرز بلون ذهبي.

دعت سلمى حنان، فبعض الصديقات سيزرنها غداً. وعدتها أن تحاول ثم تركتها، فذهبت سلمى لشراء حلويات من محلها المفضل. انتبهت أنها غفلت عن إخبار والدتها بالأمر، فهاتفتها وأخبرتها وقالت: حضري خفايف، سأطلب حلويات من الخارج. ذكرتها والدتها بشراء ورد وفحم.

كان الوقت متأخراً حين دخلت سلمى إلى الصالة، استفسرت الأم عن الكيس الكبير الذي تحمله في يدها، شردت سلمى قبل أن تجيب: قفطان مغربي جديد. خمنت الأم أنه ليوم الخطبة، فقامت عن كرسيها وهي تعض شفتها متجهة إلى الخارج. صعدت سلمى إلى غرفتها، كانت متضايقة من رد فعل أمها، كلمت خالد نحو ساعة قبل أن تنام.

مر اليوم التالي سريعاً في دوامة الاجتماعات، وبدا المكتب كخلية دبابير إثر إشاعة بتغيير المدير العام. تظهر وتنطفئ هذه الأخبار في الشركة بين حين وحين، كحرائق قصيرة العمر لا تجد ما تقتات به. غادرت سلمى المكتب مبكراً، وذهبت إلى الصالون. اضطرت للانتظار زمناً، حتى غسلت إحدى العاملات شعرها ومسدت فروته. حين انتهت من تجفيفه، نظرت سلمى إلى شعرها بنية قصه. ربما قصة قصيرة جداً كما فعلت، في أول انشقاق عن والدتها.

ظلت باقات ورود الهيدرنجا الزرقاء التي ابتاعتها صباحاً، في السيارة طوال فترة وجودها في الصالون. حين عادت سلمى، بدت وكأنها قد طبخت، ومؤشر الحرارة يشير إلى السابعة والأربعين، فندمت لأنها لم تطلب توصيلها من المحل مباشرة إلى المنزل.

22

وصلت سلمى المنزل، فوجدت والدتها تتحرك بين المطبخ والمجلس لتتأكد من إعداد المكان. قالت لها إن الحلويات وصلت وإن أحدها سيئ الطعم، لذا استبعدته. كانت ترتدي بنطلوناً وتيشيرت، ستغير ملابسها لشيء أكثر رسمية بعد قليل.

تناولت سلمى حبتي بندول، وغفت نصف ساعة قبل أن تستيقظ لتصلي وتستعد لاستقبال صديقاتها. ماذا سترتدي؟ يناسبها تيشيرت وجينز لا يخنق بطنها. لكنها تعرف أنهن سيحضرن بمظاهر متكلفة. فاطمه بالذات، تحب الاستعراض. كن ثلاثاً، مع عدم تأكيد حنان لحضورها. فتحت الخزانة، هي فرصة لارتداء ملابس تبتاعها وتكدسها. استقرت على قميص فالانتينو أبيض محتفظ ببطاقة سعره، وتنورة حمراء متوسطة الطول من الدانتيل الذي ينزلق أسفل ركبتها، بينما تنتهي بطانته دونها بقليل. اضطرت لارتداء مشدّ لأنها لم تستطع إغلاق سحابها، ثم وضعت أحمر شفاه بلونها المفضل، الأحمر القوي، فأخفى إرهاقها. انتعلت كعباً عالياً شفاف اللون منحها هيئة أكثر رشاقة، عقدت حزاماً من اللؤلؤ على خصرها، الملمح الوحيد الذي تمنت لو أنه طابق خصر أمها.

دخلت الصديقات تباعاً. احتضنتها موزة، ثم فاطمة تحمل صينية شوكولا محلية الصنع، استقرت في كيس ورقي أثقل يديها، فوضعته على الأرض أول ما دخلت، ثم هند تحمل باقة على شكل دب من زهور بيضاء. تناولت سلمى الباقة منها ووضعتها على الطاولة المزدحمة بصحون الضيافة ودلال القهوة والشاي. جلست الصديقات متجاورات، محيطات بها، يتحمدن لها على السلامة، ثم دخلت أم سلمى تسلم عليهن، وجلست في الجهة المقابلة.

سألت فاطمة هند أين تكون والدة سلمى، فقرصتها الأخيرة تنبهها. لم تعرف فاطمة أن والدة سلمى ليست عربية. عرّفت الأم بنفسها وسألت فاطمة، من أي بيت هي. لم تكن قد رأتها قبلاً، أجابتها فاطمة باسم عائلتها، وبأنها من إمارة عجمان وتعمل في دبي.

باركت موزة لسلمى بالخطبة. وتبعتها هند وفاطمة التي تفاجأت بالخبر. قاطعت الأم الحديث، «لم يحن الأوان بعد، لم نرد أنا ووالدها على العرب». احتقن صدر سلمى، فأمها تقزمها وتكذبها علناً. تشابكت الأنظار المحرجة من عين إلى أخرى، الثلاث يمسكن بشيلهن يعدلن وضعها، كأن الشيلة ستار بين موجة الضيق وبينهن، فيما احتفظت الوالدة بابتسامة مغتصبة بعد أن أطلقت الجملة الموجعة. ابتلعت سلمى ريقها، قبل أن توضح، «قصدت ماما أن الخطبة الرسمية لم تتم بعد. قريباً إن شاء الله سيحضرون».

سألت الأم فاطمة عن عملها، مغيرة اتجاه الحوار نحو أحوال

الزائرات، لكن سلمى عادت وسحبت الدفة إلى الخطبة وهي تخبرهن عما سترتدي خلال الزيارة الرسمية. تلاقت أعينهما كقوتين تتصادمان بلا صوت. رن هاتف الأم، فالتقطته ترد على المكالمة، ثم انسحبت مكررة «البيت بيتكم، وأنتن بمعزة ابنتي». لقد تقهقرت كما فعلت على الدوام، فكرت سلمى، تبقي على شعرة معاوية بينهما، لكن سلمى اختنقت بكلام لم تعرف كيف تقوله طيلة الأسابيع الماضية، وقبلها بكثير. أرادت أن تلحق بها لتقول إن الخطبة ستتم شاءت أم أبت، وإن رأيها لم يعد مهما. تكثفت حوارات غير مسموعة توالت كنقيق الضفادع في رأسها، وودت في تلك اللحظة لو كانت امرأة قوية تواجه والدتها، امرأة جبارة كجدتها سلامة، لكن عضلات نواياها خذلتها كالعادة.

تحاملت سلمى على نفسها كما تفعل عادة. ابتسمت وتابعت الضحك. تعيش حدث المكان، وزمناً مستقبلياً تواجه فيه أمها بعنف. استأذنت ضيفاتها، فودعتهن عند الباب، وعادت لتجد والدتها في مكانها المعتاد منذ سنوات، بالهيئة والبرود نفسيهما اللذين تستقبل بهما والدها وتودعه، نصف الابتسامة نفسها وبالعينين الحزينتين كل الوقت.

وقفت موازية لها، ركبتاها تتلامسان وتتنافران. استجمعت كل خلية عصبية ما زالت على ولائها لها، فخرج صوتهاً مرتجفا عكس ما أرادت: ماما، لست طفلة لتضحكوا منها! لن تستقبلوا خالد لترفضوه،

ستقبلون به، أنا موافقة وهذا مستقبلي، وأنا متمسكة برأيي. أخبري والدي بذلك. لم تصل كلمات الأم إليها، كانت غارقة في الطبول التي تقرع قلبها وهي تخطو باتجاه صومعتها.

23

لطالما فرضت عليها مواقف أن تتجزأ لكي تتواءم، كل حين، مع فئة. تجزأت لعبد الملك، لجدتها، للصديقات، وفي مرات غيرها، لزملائها في العمل. لطالما غُبنت، وها هي أمها تفرض عليها تجزؤا قاسياً آخر، أن تنفصل عن قلبها ومشاعرها تجاه خالد.

كانت حنان الصوت الآخر في هذا الحوار. أغلقت سلمى الهاتف وظل الحوار قائماً، وهي تتأجج وتكتب عنه في دفتر يومياتها:

«من أين يأتي هذا الغضب ويمتزج بذكريات سوداء تجعل يدي تنكمشان؟ أريد أن أحضن صدري لئلا ينفجر، لكن ذراعي تتلاشيان وأظل جذعاً بلا يدين. أندم على سنوات وهم كذبت خلالها على نفسي. ما الذي أردته؟ أن أنسى؟ ماذا تعني هذه الكلمة أصلاً؟ وما الذي أردت نسيانه؟ رجل صحراوي يجب أن تبقى حبيبته بعيدة كحلم؟ وما شأني بخياراته ولم أتوقف عند إشارات لم تعد تعنيني...

توقفت عن الكتابة. وضعت القلم في منتصف الدفتر وأغلقته. لم تستطع أن تكتب أكثر، تخلت يداها عنها. ذهبت إلى الحمام، غسلت وجهها مرات عدة. خلعت ملابسها، وأخذت دشاً طويلاً تحاول أن

تنظف ما تهيأ لها أنه يخرج منها. رأت نفسها من الأعلى، من زاوية لم تعتدها، رأت أنها تخرج من جسدها، رأت نفسها طفلة ثم مراهقة ثم امرأة ثلاثينية، كانت كأنها تتصفح ألبوماً بأبعاد ثلاثية، يتحرك أمامها بسرعات متغيرة. جففت جسدها، وضعت كريماً يحتوي فيتامين سي على وجهها، ثم آخر بزبدة الشيا على ذراعيها وساقيها. هاتفت خالد الذي سألها إن كانت تبكي. قالت له إنها تعبة تريد أن تنام. لم تفهم سلمى لم تتصل به وتكذب، عوضاً عن أن تحدثه بما ضايقها. استأذنت، منهية المكالمة. طار منها النوم وعادت لحظات هروب أمها تلاحقها بحدة. تناولت رواية أهدتها لها ميثاء من أدب السجون، قرأت فيها قليلا فزادتها كآبة. كانت الساعة تشير إلى الثانية صباحاً حين غفت.

تكشفت لها ذوات لم ترها من قبل. رأت الوقت مخلوقاً طيفياً يمر مرتبكاً أمام كثافة أفكار تتغير كل عُشر ثانية، ثم يتلامس معها، يدوران ويلعبان بذواتها بحركة لولبية كإعصار تنظر إلى فوهته، فتشاهد بعضاً من ذواتها تدور معه، وأخرى تتحرك عكسه. هناك ذوات تبكي، وأخرى تضحك، ذوات ترقص وذوات عالقة لا تتحرك، ذوات تدير ظهرها لأمها في نقاش، وتكذب على جدتها لتخفي أمها، ذات تقول لحنان إنها لم تقبّل رجلاً بعد، ذات ترمي هاتفاً في الماء، وأخرى ترفض الاحتفال بعيد ميلاد وهي وحيدة، بلا حبيب يهنئها لتكبر بفرح. طارت متنقلة من ذات إلى أخرى دون إرادة، لا تعلم من يحركها. للحظات، ظنت أنها ربما ماتت، أو أنها اللحظات الأخيرة قبل الموت. شعرت أنها

مستنزفة وهي تفتح عينيها بصعوبة، تشهق، وتختنق بريقها. مدت يدها تتناول زجاجة الماء البلاستيكية من على الكوميدينو. فتحت الغطاء، شربت. تسارعت أنفاسها، حاولت أن تسيطر على نفسها بشهيق وزفير يطولان. ابتلعت رشفة أخرى لتتأكد أنها حية ترزق. اصطكت أسنانها وسرت كهرباء باردة في جذعها. قرأت قل هو الله أحد تسع مرات، قبل أن تهدأ.

نهضت سلمى متأخرة. عند الظهر. لم ترد على اتصال مديرها الذي ترك رسالة صوتية يسأل عن تاريخ الاجتماع القادم للّجنة، وهي معلومة سيجدها لو اطلع على بريده الإلكتروني. سلمى اليوم في إجازة، وهي لا ترغب في البقاء حبيسة المنزل، لن تحتمل رأسها وحواراته، لذا ستخرج إلى مكان ما، أو تتصل بحنان وتخرج برفقتها، أو تمر على جدتها التي تظنها لا تكبر، أو على منزل عمها محمد الذي تقاعد قبل أشهر فتوطدت علاقتها به.

دخلت الحمام، توضأت، صلت ركعتين، ثم انتابها الشك المعتاد، هل هذا الوقت مكروه للصلاة؟ هذه المرة لم تتصل بخالد لتستفسر، سألت جوجل وهي تطبع: ما هي الأوقات التي تكره فيها الصلاة؟ وجدت إجابة لأسئلة ظلت طويلاً تتردد بلا إجابة.

غيرت ملابسها، ارتدت بيجامة لم تكن ذات لون مفضل لأحد. باغتتها رؤية القميص الأخضر والتنورة اللذين ارتدتهما في اللقاء الأول بعبد الملك، ما زالا معلقين بين الملابس. هل كانت تتعامل

معهما كشاهدين، أم كذكريات مقدسة؟ هل كانا أي شيء غير أمل معلق في الخزانة؟ عدم اتخاذ قرار كان قرارها.

تناولت الهاتف، أرسلت رسالة نصية إلى حنان، ثم اتصلت بخالد. رد سريعاً: كيف صحتك اليوم، أجابت بخير، طلب منها أن ترسل له خارطة الوصول إلى منزلهم، ففعلت ما أن أنهت المكالمة. فجأة اعتراها إحساس بالخجل، كان إحساساً يتزايد تجاه كل ما يخص علاقتها به. توقعت أن تكون أكثر راحة مع اقتراب يوم الخطبة، حارت، أتراها تشعر بالقلق أم بالحماس، أم بالترقب؟ اتصل خالد ثانية ليقول: افتقدتك، وولهت عليك. ابتسمت خجلة، كيف ترد؟ وأنا بعد، قالت، مستخدمة جملة عبد الملك التي لطالما ضايقتها وكرهت أن تسمعها.

أخبرها خالد عن تفاصيل أسبوعه، وأنه سيذهب إلى العاصمة لليلتين ليحضر اجتماعات تتعلق بالعمل. سألته أين سينزل، فقال في فندق جديد يطل على البحر. قالت إنها تحسده، فرد أنها ستكون إحدى آخر المرات التي سيذهب فيها إلى العاصمة من دونها.

أين سيعيشان؟ لم ترد عليه في موضوع السكن، مدينتها أم مدينته، لم تجبه ماذا تفضل. راقها دلاله، وهو الذي ينتصف يومه بين مدينتين، مدينته الصباحية ومدينتها الليلية.

اتصلت بحنان، طلبت أن تلتقيها، فلم تتأخر حنان في الاستجابة، وطلبت أن تمر بها في المكتب. تجهّزت سلمى وارتدت جلابية مطرزة، على غير عادتها. حين نزلت إلى الصالة، لم تكن والدتها في المنزل. هذا أفضل ربما، فقد كانت جد قاسية معها، بالأمس.

ركبت سيارتها وتوجهت إلى مكتب حنان. انتظرتها لدقائق، قبل أن تنزل إليها. لم تنتظر سلمى كثيراً قبل أن تسألها: لماذا تزوجت سالم؟ فردت عليها: لأنه جيد. وأردت التخلص من مشنقة أمي. معه تنفست، استعدت حرية لم أعرفها. والدتك متعلمة، لا تملأ رأسها قصص الحسد والسحر والأصل. أمي تفندك إلى عرق، يستحق الحب أو لا. عنيفة رغم ضآلتها. تقول إن جدي سلخ جلدها حين طلبت أن تدرس عند المطوعة، واتهمها أنها تريد القراءة على قبره. اسود قلبها من حينه ولم يبيضه الستة الذين أتوا من رحمها. لو أن الأم كانت من اختيارنا، لاخترت واحدة كوالدتك تتضوع سلاماً. وخذي أنت والدتي، سليلة الدماء الزرقاء، ستليق بك.

لا تدري سلمى لم تداعى مع كلام حنان، موقف إخبارها لخالد عن أصل أمها هي. حين أجابها أنه يعرف، ارتخى كتفاها كأنها سلحفاة تحررت من قوقعتها الثقيلة، فصارت خفيفة. لم يكن مهماً في نظره، الربع الذي ستورثه لأبنائها، ولا اسم لن يدون في شهادة ميلاد. أعزّته هي لانفتاحه، لم يتقوقع كعبد الملك الذي عقدت مرة أخرى محاكمة متأخرة لتنزل به ظلماً رأت أنه سبقها إليه. امتنت لخالد لأنه لا يقيسها بمسطرة النسب، معه لا تخبئ سراً ولا يتنازعها ذنب.

وصلت سلمى وحنان في دقائق، دخلتا المقهى الخالي من الناس، في شارع الشيخ زايد، وجلستا متقابلتين.

- «عيناك غائرتان، ما بك سلامي، تبدين كشبح»؟

- «عقلي لا يتوقف عن الدوران بي، يأخذني إلى رؤى مؤلمة، مواقف أحرجتني أو آذتني. بالأمس شاهدت إعلاناً عن دورة عنوانها الحوار مع الذات. أحسست أنها إشارة من السماء، علّي أوقف هذا السيرك في عقلي. لا ليس سيركاً، في عقلي غابة بكل شراسة حيواناتها ونباتاتها. أنا أتسمم وأُنهش من عقلي...».

قاطعهما النادل يأخذ طلباتهما متأخراً. طلبتا عصير جزر.

- «اهدئي سلمى، احضري الكورس إذا، وربما حضرته أنا والشلة معك... ألا تكون هذه طريقتك في الهروب من زواج لا ترغبينه أصلاً؟ »

- «لا أعرف، تبدو حياتي مسلسلاً من الهروب لا أدري متى بدأ، ولا كيف سينتهي. سعيدة بمجيء خالد، لكن الأحداث في المنزل، والأسوأ في عقلي، تفقدني إحساس الفرح. لقد بقي يوم واحد، وتخيلي أنا لم أفعل شيئاً، سوى طلب الزهور وشراء القفطان. لطالما رغبت في تغيير بعض أثاث البيت للتخفيف من البهرجة شرقية الطابع. أشياء عديدة خططت لها استعداداً لزيارته. الآن، أريد لزيارة الخطبة أن تمر فقط. أحياناً أفكر أن أوكل أحد عمومتي، فأتزوج بخالد رغماً عن أنف الجميع. بت أشكك في كل شيء، حنان، وكلما اقتربت من خالد، أجدني أغرق في عوالم سحيقة».

قطعت سلمى كلامها حين انضمت حصّة إلى الصديقتين. وما هي إلا لحظات، حتى ضجّت الطاولة بضحكاتهن، إذ أخبرتهما الأخيرة عن ابنها الذي قرر العمل في جمع القمامة، لأنه يحب اللون

الذي يرتديه عمال النظافة. في تلك اللحظة، وصلت آمنة التي تفتقدها لاستقرارها في السعودية. كانت الأصغر بينهن والأكثر جنوناً، تزوجت برجل قالت صديقاتها عنه، كأن الله خلقه لها.

قالت حنان: ستتابع سلمى دورة اسمها التحاور مع الذات، فأيدت آمنة الفكرة، مفضلة إياها على الفالس، خمسيني يرتدي بشت ويرقص الفالس! علقت ضاحكة. دافعت سلمى بأنها تسعى للحفاظ على صحتها النفسية، لذعتها حنان: تحاولين أن تكوني شخصية ليست أنت. «تكفيني الألعاب النارية في مخي»، ردت سلمى مستاءة، فنهضت حنان وأحاطتها بذراعيها وقبلتها، لا تتحسّسي.

حاولت الصديقات إضحاكها. لاحظن نظراتها الغائبة. قرصتها حنان، «أين ستعيشان؟». لم يقررا بعد، ثم إنها تفكر في تغيير عملها. نصحتها حصة أن تسكن قريباً من والدتها، ساردة تعبها مع طفلها الأول الذي أعياها بالحمى، والمغص، والأكل.

سألت آمنة حنان إن كانت تفكر في التقاعد، فأجابتها بالنفي، «ساعتي البيولوجية متزامنة مع المدارس، والدوام، لا اعرف كيف أستيقظ دون أن أكتب قوائم بما سأفعله. أنا الموظف الكلاسيكي، سأعمل حتى الستين، وبعدها سأداوم في المستشفيات لأتعالج من حياة أنهكتني، بانتظار زيارة عزرائيل... هذه خطتي، أنا إنسانه دون قضية شخصية، تعتنق قضايا الآخرين، إنسانة هدفها إصلاح شخص أو شيء ما.

علقت سلمى بخبث: ولهذا تطالبين بإصلاحي؟

فردت حنان: أفعل أحياناً، لكنك ستتزوجين عن حب، لا كأداة تفاوض مع الحياة. أنا وسالم نعيش سعادة غير مسبوقة في عائلتي، بفضل جينات حضارة والدته القديمة التي حيدت قسوة جينات الصحراء. حتى أمي العنصرية، صار هو نسيبها المفضل. لم نحتفل يوماً بعيد الأم المذيل بالتحريم، لكن سالم بدأ ذلك وصار الأمر تقليداً سنوياً.

قالت سلمى: بالأمس قسوت على والدتي كما لم أقس عليها من قبل. تفتت قلبي، ثرت على رفضها، بشراسة. فقط لو تدري كم تكويني الجملة التي تظنها تسعدني، «أنت ربيتي نفسك بنفسك، لم تحتاجي الي».. ما كان يجب أن تتركني لجدتي.

أمسكت حصه بيديها، «اهدئي. والدتك باب ما زال مفتوحا للجنة، وستسامحك، أنت وحيدتها».

وقفت سلمى فجأة تستأذن بالمغادرة، لأنها تريد زيارة جدتها التي حلمت بها بالأمس. «ها أنت تهربين مجدداً»، علقت حنان. «من إصلاحاتك يا حنان، أكيد»، ردت سلمى قبل أن تضيف، «أسمعكن ولا أصدق، أريد أن أسمع نفسي، وأن أعقد هدنة طويلة مع أصوات الغابة». كانت تكذب. كذبة بيضاء. حملت حقيبتها، فعلقت حنان على علامتها التجارية، «نظريات الاقتصاد لا تكذب، الفقراء يزدادون فقراً، أما أنت فستزدادين ثراء بزواجك من خالد». ضحكت سلمى، «قولي ما شاء الله»، وقبلتهن مودّعة. استوقفتها حنان «رجعيني مكتبي، أنت خطفتني من هناك».

24

أعلمت سلمى والدتها أنها ستتغدى مع جدتها، برسالة نصية. بدت لها جدتها أفضل حالاً. سألتها عن خطبتها وأخبرتها أنها تعرف أم خالد، «الشيخة روضة». قيظت مرات معها في الخمسينات، في فلج القبايل، في الباطنة. كلمها مروان عدة مرات فلم ترد، تعرف أنه سيعاتبها. أرسلت إليه: أريد البقاء وحيدة. اتصلت بخالد تخبره أنها تفتقده، وأن المدينة تبدو موحشة حين يتركها. لم تعرف كيف تخبره بمواجهة الأمس وبهروبها من أمها.

تناولت سلمى العشاء مع جدتها. لقمتها الشوربة الخالية من الملح. اشتكت الجدة، «الأكل ماصخ». اتصل مروان مجدداً، ثم والدها، فردت عليه. بدا عادياً، خمنت أن أمها لم تخبره عن موقف الأمس. شعرت حيالها بالامتنان. هاتفت مروان، قال لها: كنت أكتب لك رسالة نصية، أردت أن أراك. ضحكت، ادعني الى العشاء، فعشاء جدتي لم يكن كما أريد.

عاود خالد الاتصال. سألته ما به وقد استشفت بصوته بعض الضيق. «خالد، هل أنت تعب؟ هل أنت مريض حبيبي»؟

- «كلا، أحتاج إلى رؤية عينيك كي يذهب هذا الإحساس».

- «اي إحساس؟»

- «خوف من الرفض، سلمى».

- «خالد أحبك، لن أغير رأيي، فهل أنت على وشك أن تفعل؟ إن كنت قد غيرت رأيك أخبرني الآن، وثق أنني لن أستجدي حباً في حياتي. تسارع نبضها، وهي تشعر أنها ستعيش موقفاً عاشته من قبل».

- «أنا الذي أستجدي حبك. أنا متردد قليلاً، ليس للارتباط، ولكن لأن مواجهة والديك لن تكون سهلة. أحبك سلمى، لم أعرف قبلك أن هذا القدر من الفرح ممكن. ما زلت صغيرة، لن تعرفي معنى أن يفقد إنسان دهشة الحياة والتلذذ بمتعها الصغيرة».

- «أكرهك، لم توترني هكذا وأنت تعلم بأني تعبة؟»

-«فكرت بأسباب تعبك، وشرودك المتواصل، فلم أجد إلا مبرراً واحداً، أنك ترغبين في الانسحاب، أو أنك غيرت رأيك... لست الأولى، أحببت مرتين، وتزوجت بالسر من إحداهما، لكنك الحياة الأولى. كنت أظن أنني لن أحب ثانية، كما أحببت إيمان، لكن حبك فاق كل حب مررت به. قصتي مع إيمان انتهت. لا أعرف حتى الآن ما الذي حدث، والمروءة لا تسمح لرجل بالاستمرار مع امرأة تعلن رغبتها بالانفصال. لا ضمانات في الحب، سلمى».

- «أحبك خالد، أحب نظراتك إلي، تشعرني بأني امرأة مصطفاه، ترضي غروري على الدوام».

قبلها على الهاتف كما يفعل المراهقون، وفعلت هي أيضاً. كلاهما يحتاج إلى أن يطمئن الآخر، وإلى أن يطمئنّ. وضعت الهاتف واتجهت الى المرآة، حملقت في وجهها، لماذا فعلت هذا به؟ كيف فقدت ثقتك به في لحظة، كيف استدرجتك مشاعرك إلى محاكمة كهذه؟ كيف عدت إلى تلك اللحظة التي مزقتك؟ ماذا أفعل بنفسي وبك يا خالد؟ ماذا أفعل بك يا أمي؟

25

كانت الساعة تشير الى التاسعة حين وصلت المنزل. حمدت الله أن والدتها ليست على أريكتها. صعدت إلى الغرفة ترتب كلاماً تعتذر به لها عن صوتها المرتفع بالأمس، فلم توفّق. خطر لها أن تستعين بباقة زهور تذيلها باعتذار. تهرب الآن من الاعتذار، تجرؤ على جرحها، ولا تجرؤ على مداواتها. يجب أن تضع حداً لهذا.

مشت إلى غرفة والدتها، وقفت أمام الباب تستجمع ذواتها، ظلت لوقت عالقة، قرصت يدها لتتأكد أنها استيقظت من حلم الأمس وأنها لم تعد في العالم الآخر. وجدت أطرافها باردة كالثلج. شعرت أنها داخل سجن من ذنب تحمله أينما تحركت. ضمت يدها اليمنى ترفعها كي تطرق الباب. ولم تطرقه. عادت ترى نفسها من الأعلى، وتتوقع كل الاحتمالات. احتمال أن لا تسمح لها والدتها بالدخول. أن لا تحدثها. ضربت الباب. تنفست. «ادخل»، سمعت أمها تقول، فأمسكت بمقبض الباب ودخلت.

عاد صوت سلمى يتخلى عنها كلما باعدت شفتيها. دنت من والدتها وقبلتها على رأسها. دون أي كلمة. سألت الأخيرة عن أخبار

الجدة، فأجابت أنها أفضل. لم يعد الحوار ممكناً وكلتاهما تستثقل وجود الأخرى. لم تلتق عيناهما اللتان تواجهتا يوم أمس. وهي خارجة، قالت أمها: «ليس من الجيد أن تخبري صديقاتك عن خطبة لم تتم بعد، ستضرين بسمعتك». لم ترد سلمى، وأغلقت الباب برفق مبالغ.

دخلت سلمى غرفتها، جلست على السرير، تناولت الهاتف، وفتحت تويتر. انسحبت من متابعة عدة حسابات تنشر صور جثث أطفال. أحست بالغثيان وما لبثت أن استفرغت على فراشها. نهضت تستحم ولوعة الصور عالقة في بلعومها. تضاءلت قضاياها أمام الصور. اغتسلت بسرعة وبالغت في بخ العطر على بجامتها، قبل أن ترتديها.

نزلت تنادي إيما لتغير الملاءة والوسائد. وضعت إيما يدها على جبهتها تتأكد إن كانت سلمى محمومة. طمأنتها أنها بخير. تركتها غير مقتنعة، ثم طرقت الباب على الأم تخبرها أن سلمى ربما تكون مريضة. دخلت الأم غرفة ابنتها على عجل، سألتها إن كانت بخير وهي تكرر حركة إيما بوضع يدها على جبهتها. طمأنتها سلمى وأخبرتها أنها استفرغت من صور الجثث، لا من مرض، قبلت رأسها ثانية، ودخلت مسرعة إلى الحمام كي لا تشاهد والدتها الدموع التي ترقرقت.

26

استوعبت سلمى أنه الصبح وهي تلقي بنظرها على المنبه الصغير التي أشارت عقاربه إلى السادسة. الغرفة مضاءة بشمس تستعجل حر الصيف. غلفت أصوات العصافير وديك الجيران سمعها، فأدت الواجب، بعد أن فشل المنبه في إيقاظها. تثاقلت عن النهوض، ووقت الصلاة قد فات.

لقد حان أخيراً اليوم الموعود الذي طال انتظارهما هي وخالد له. تناولت الريموت من على سطح الكومودينو، لتخفف من برودة التكييف. يصعب أن تتخيل أن زجاج النافذة الهش يفصلها عن درجة حرارة أربعين مئوية، وأن ساعات فقط تفصلها عن زيارة خالد وأخته «أم ناصر» التي تصغره بخمسة أعوام، والتي ستكون كل النساء اللواتي سيأتين لرؤيتها. أراحها أن لا تكون محور نظرات عيون فاحصة كثيرة. رأت أنها أكبر من أن تأتي نساء لا تعرفهن للحكم عليها إن كانت تصلح زوجة لخالد أم لا.

تمطت في كسل، وهي تحملق في السقف وتقلب نظرها بين أربعة أشياء، الستارة التي يختبئ خلفها العالم، الريموت الملتصق

بيسارها، الثريا التي تعلو السرير، والهاتف المستلقي كجنين موصول بسرّته إلى سلك الشاحن. لم تمد يدها لتمسك الهاتف، سيبتلعها إن فعلت مخلوق السنتيمترات الصغيرة هذا والعوالم اللامتناهية.

مرت نصف ساعة قبل أن تنتبه إلى أن عقارب المنبه جامدة، فرغت البطارية على ما يبدو. ما هي احتمالات توقف الزمن عن الحراك في هذا اليوم يا ترى؟ ماذا سيحدث إن ظلت الساعة جثة لا تتحرك؟ أحست بالتوتر. إنه الصباح المنتظر. رفست اللحاف الحريري الأبيض، المشغول بخيوط من اللون نفسه. هوسها باللون الأبيض، جعل الغرفة تبدو كقطعة دانتيل مزخرفة بلون أحادي. بسملت بصوت عال، كأنها تطرد شراً تراه، واستوت جالسة على حافة السرير. لامست قدماها الأرض، لبست خفيها وهي تخطو إلى الحمام.

صدمتها الحرارة والرطوبة، تعكر مزاجها، تحملت أنين المروحة الصغيرة وصفيرها عبثاً طوال الليل. تركت الباب مفتوحاً، فسادت رائحة المنظف الأزرق في قاع المرحاض، مختلطاً بشذى الفواحة الزجاجية المملؤة بخليط من الليمون والياسمين والقرنفل، وقد تكدست في قاعها محارات بيضاء. أهدتها إياها صديقتها، إذ ليس سراً أنها تعشق العطور. تنقل العبق من الزجاجة إلى الهواء، خمسة أعواد خشبية تراجع عطرها أمام سطوة المنظف الذي ذكّرها لسبب ما بالمستشفى. أمسكت الأعواد الخشبية بيدها، وقلبتها رأساً على عقب، ثم أخذت نفساً لتنعم بالعبق. لن تكون ذاكرة يوم خطبتها ساعة متوقفة

ورائحة منظف! تثاءبت وهي تتوضأ بحركة آلية، دون أن تدعو أو تستحضر النوايا للمغفرة. مسحت رأسها مرتين، بدل الواحدة، نشفت وجهها ثم ذراعيها، وأخيرا قدميها. تثاءبت ثانية، ودمعت عينها اليمنى لسطوة النعاس.

تركت باب الحمام مفتوحا. وهي تخطو نحو السجادة الجاكار المحشوة بالإسفنج، والمطرزة بورود بألوان الباستيل. آمنت أنها أكثر المخلوقات روحانية. ارتدت شيلة الصلاة، ضبطتها للمرة الثانية وهي تضع يدها على فمها. من أين يأتي النعاس؟ استغفرت لنومها عن الصلاة. أي بركة ترجو واليوم يبدأ بإثم. أنهت المشاعر، ثم عادت إلى السرير، أمامها يوم طويل، ولا تريد أن تتثاءب أمام الضيوف.

نهضت لاحقاً والشمس تنتصف السماء. صلت الضحى لتكفر عن فوات الفجر، وهي تنظر إلى ساعة الهاتف باستمرار. أخذت دشاً طويلاً، غسلت شعرها بالشامبو مرتين، حتى غطت الرغوة كل جزء في قاع البانيو الأسود. فرقت شعرها من المنتصف، أخذت حفنة من البلسم، ووزعته على الخصلة اليمنى بادئة من أسفل أذنيها، لفت الخصلة بمقبض. وكررت الفعل مع الخصلة الثانية، ثم أغلقت الدش. ستنتظر دقيقتين. أخذت فرشاة الجسم الكهربائية وبدأت تدلك ساقها من القدم إلى الركبة عكس اتجاه الدورة الدموية، كما يذكر كتيب الإرشادات. كررت العملية من ركبتها حتى فخذها، الى أن انتهت الدقيقتان. دلكت ساقها الأخرى، ثم فتحت الدش. غسلت آثار الصابون ذي الحبيبات

الترابية الذي وزعته. فردت شعرها وغسلته من البلسم، بدا ملمسه كقطعة ساتان وهي تلمه إلى الجانب الأيسر وتعصره. ضمته بعد أن خف وزنه من الماء وثبتته بثلاثة مقابض. غسلت جسدها بالصابون مرة أخيرة خوفاً من أثر البلسم على مساماتها. توضأت للصلاة كما اعتادت أن تفعل كلما استحمت، لا تدري منذ متى؟ أخذت منشفة قطنية وردية اللون من الرف، جففت جسدها، ووضعتها في السلة، ثم تناولت أخرى، لفتها على صدرها وجذعها. فتحت شعرها، تناولت منشفة ثالثة ولفتها عليه. بدت كدمية واللون الوردي يغطيها. فتحت الدرج التقطت أعواد قطن، نظفت أذنيها وهي تقابل مرآة لا تُظهر وجهها بعد أن احتلها البخار. فرشت أسنانها، وهي تعصر عبوة المعجون في رمقها الأخير. لم تذهب إلى الجمعية لشراء أغراضها منذ مدة. خرجت، واستلقت على كرسي أبيض طويل في غرفتها.

اتصلت بإيما، طلبت منها إحضار الإفطار، عصير، وقهوة، وكرواسان جبن. حملت مرآة مكبرة تدقق في الخطوط المقوسة في جفنها السفلي. تقلقها باستمرار، كيف لم تجد العلوم الانسانية بعد حلاً لمشكلة أزلية كهذه! أخذت تقطب جبينها، باحثة عن الخطوط الطولية أعلى أنفها. تبحث عن تجاعيد لتتآمر عليها بالبوتوكس. كانت فكرة أن تحقن وجهها بسم يشل العضلات مرعبة، لكنها بدأت تشحذ الهمة لتنفيذها بعد أن فعلت أمها. وضعت يدها اليمنى على بطنها تحتضن سرتها، لو أنها تفقد هذه الكيلوغرامات، فقط. تكاد الخطوط

لا تُرى. بدت أصغر من قريناتها، ويصعب تفريقها عن بنات العشرين حين تخلع السواد.

شربت العصير، وأكلت نصف الكرواسون الدسم، فتناثر فتاته على نحرها والمنشفة والكرسي كلما قضمت منه. سيسبب لها الحرقة لاحقاً. غيرت ملابسها، ونزلت إلى الدور الأرضي، دخلت المطبخ تسأل الخادمة عن الطقم المذهب الذي ابتاعته والدتها من إيطاليا. أطلت والدتها تصبّح وتستمع إليها بصمت وهي توصي الخادمة، ثم قالت: لا عليك، سأتولى كل شيء. استوقفتها الجملة، نظرت إلى وجه أمها تحاول أن تستشف تغيراً أو رضى أو فرحة أو أي ملامح، لكنها لم تجد جديداً، كانت كما هي كل يوم، بخواتمها الضخمة، وخط الكحل المرسوم بعناية، والشعر المسترسل حتى نهاية ظهرها. تساءلت إن كانت ستبدو مثلها في الخمسين من عمرها.

«ماما سأذهب إلى الـSpa»، قالت، فسألتها والدتها، «أيهم؟». «المملوك لخبيرة التجميل التي تتابعين برنامجها كل خميس»، أجابت. «حسناً، لا تتأخري، سيحضر ضيوفك عند السابعة والنصف». الكاف في ضيوفك قالت كل ما لم تقله أمها.

صعدت سلمى لتستعد، غيرت حقيبتها إلى أخرى سوداء كبيرة، وضعت فيها صندلاً ذهبي اللون، مكشوفاً عند الأصابع، لتنتعله بعد طلاء أظافرها، ونزلت خارجة من المنزل.

ألقت الحقيبة على الكرسي المحاذي لها في السيارة، وضعت

المفتاح وأدارت المحرك، صدح الراديو بأغنية أطربتها، فرفعت الصوت. لم تجد ريموت فتح المرأب، فضغطت المنبه، حضر السائق وناولها واحداً، فتحت الباب وخرجت.

وصلت قبل موعدها، يستقبلها عطر عشبة الليمون وموسيقى يتخللها صوت الموج والخرير. رحبت المضيفة بها، وأخبرتها أن جناحها جاهز، ثم سألتها بصوت آلي: ماذا تشربين؟ لدينا زنجبيل وشاي أخضر وأبيض وأحمر، بابونج، وقهوة وعصير. «سأشرب زنجبيل»، أجابتها سلمى، فعادت تسألها: بما ستبدئين من باقة العلاجات؟ «بعلاجات الوجه»، قالت سلمى، فناولتها المضيفة نموذجاً ورقياً لتملأه، ثم رافقتها إلى جناح الـ VIP.

وجدت سلمى خبيرة التجميل تنتظرها، سلّمت، وهي تتحرر من العباءة والشيلة. أخذتهما منها الموظفة وعلقتهما على الحائط. حضر الزنجبيل، ستشربه لاحقاً. استلقت على السرير الجلدي الأبيض، أطفأت الخبيرة المصابيح، مكتفية بضوء الأجهزة والشموع. وقفت عند رأس سلمى، سحبت المقابض الحديدية السوداء من شعرها، وسألتها إن كانت تضع وصلة؟ ردت «كلا، جينات جيدة». لملمته الخبيرة وحشرته في قبعة من النسيج كالتي يرتديها الجراحون في غرفة العمليات، وغلفت الأطراف بعصابة بيضاء شدتها على جبهتها. تناولت الخبيرة عبوة عصرتها على أطراف أصابعها، وربتت بالهلام على وجه سلمى. كان ملمس الهلام بارداً، ذكرتها رائحته بمعجون الواسابي

الأخضر الخاص بالسوشي. دلكت الخبيرة وجهها بحركة دائرية، مزيلة آثار كريم الشمس والمكياج. قالت لسلمى: وجهك مشدود، يبدو أنك تكزّين على أسنانك؟ فأجابتها: لا أعرف، يمكن. رغم أنها نامت ساعات طويلة، بدا وجهها مرهقاً، كأنه ظل مستيقظاً وهي نائمة. اقترحت عليها الخبيرة عمل جلسة ريفلوكسولوجي، فوافقت سلمى.

خرجت الخبيرة وعادت مع المدلكة التي وقفت أمام قدمي سلمى، طوت حاشية البنطال ورفعتها، ثم فركت قدميها بمنشفة مبللة بماء دافئ، ووضعت صابوناً جافاً عليهما لتعود وتمسحهما ثانية. وزعت كريماً على باطن القدم، وضغطت على نقاط محددة. تثاءبت سلمى. أحست أنها بين أيد أمينة، اختيار موفق سيستحق المبلغ الذي ستدفعه لاحقاً. غفت لدقائق كانت أكثر وقت استرخت فيه من أسابيع. فتحت عينيها، فقالت لها الخبيرة: الآن يجب أن تغلقي عينيك، سأضع قناعاً على كامل الوجه والعينين. أغمضت سلمى عينيها مستسلمة، ضغطت المدلكة على نقطة في القدمين، فسحبت قدمها في ردة فعل لا إرادية. قالت المدلكة: لهذه النقطة علاقة بالجهاز الهضمي، أنصحك برؤية طبيب مختص. لا تؤمن سلمى بالعلوم الشرقية. لكن والدتها، إن سمعت هذا الكلام، ستصدق بالتأكيد.

أنهت سلمى برنامج العناية بوجهها وبشرتها. رتبت حاجبيها الطويلين وقصرتهما، كابدت الألم الذي تكرهه لتساير الموضة. جففت شعرها ثم لفته باللفائف، تريده مموجاً بموجات كبيرة. بدت،

حين أنهت التسريحة، ستينية المظهر، وأكثر شبهاً بوالدتها. صبغت أظافرها بلون أحمر قان لم يرقها، فغيرته إلى زهري فاتح.

شارفت الساعة الخامسة، يجب أن تعود إلى المنزل. هاتفتها والدتها، فأخبرتها أنها على وشك الخروج،«حسناً الغداء برياني لحم، ومعكرونة بالبيشاميل، هل تريدين شيئاً آخر؟»، لا أجابت سلمى قبل أن تسمع قرقرة بطنها. كانت جائعة، لكنها نسيت أن تأكل كالمعتاد.

في طريق العودة، ألحت عليها تفاصيل ومواقف بدت لها مدعاة للتساؤل. لمَ لم تشعر بالغيرة على خالد؟ هاتفتها حنان، «ماذا تشعرين؟». «كأنني أرى نفسي من الأعلى حنان، كأنه يوم لا يحدث لي»، أجابت.

وصلت إلى المنزل، وجدت سيارتي والدها والسائق في الموقف، تأففت من الرطوبة الخانقة وهي تترجل. وجدت طيور هدهد تشرب من أصيص وضعته والدتها. توقفت تراقبها لبرهه. دخل مروان بسيارته، «ماذا تفعلين في الحر؟ ادخلي عن تذوب الكشخة». تحرك مروان بخطى سريعة فطار الهدهد، «يا ربي ما أجلفك».

دخلا إلى الصالة، قبلها على خدها، ثم نظر إليها بعين مستنكرة، «بنطلون وتيشيرت، ضيوف العرب من L A؟». ضحكت سلمى، «الآن قدمت من الصالون». أنزلت الشيلة الخفيفة عن رأسها تستعرض وتسأله رأيه. «يناسبك، تبدين كماما في صورها القديمة». لم تعلق، أحست أنها تشبهها أكثر من أي وقت مضى.

27

انتبهت إلى الزهور، مصفوفة كما تخيلتها. دخلت إلى المجلس. وجدته مبخراً ومعطراً، كأن الضيوف عند الباب. اعتنت والدتها بالتفاصيل بدقة مدهشة، حاولت سلمى إقناعها بتعيين مدبرة منزلية، لكنها رفضت. لا أحد بإمكانه فعل ما تفعله أمها بهذه السرعة. قرقر بطنها ثانية، فنادت المساعدة لتغرف لها الطعام.

جلس مروان يأكل معها، سألته «ألم تتغد؟»، فقال: «ألفت انتباهك إلى أن هذا برياني أمي، لو تطبخ بهجت مثله لمرة وحده، أقمت لها عرساً ثانياً». شاكسته، أنه ربما من صنع الطباخة، فرد عليها، «رائحة يدي أمي في الأكل. باكر تبعدين وتقدرين». أرعبتها الجملة، كيف سأبعد، لن أنتقل إلى عالم أو بلد آخر، أنا فقط سأتزوج.

أنهت سلمى غداءها وصعدت إلى الغرفة. ليس لديها ما تفعل، بعد أن تولت والدتها كل شيء. نادت إيما تستعلم منها عن التفاصيل، فأخبرتها أن والدتها أمرت المساعدات بإعداد المجلس والصالة لاستقبال الضيوف، وأنها دخلت الظهر إلى المجلس لتتأكد من أدائهن، فلم يعجبها أن تكون المزهريات صلعاء، لكنها لم تكن قد

طلبت زهوراً. أضاءت ثريات المجلس، وتحققت أن كل ركن فيه كما يجب، وأن كل وسادة في مكانها الصحيح. فتحت الستائر تتأكد من أن النوافذ مُسحت من الداخل والخارج، وأوصت بتغيير أصص النباتات عند المغاسل، ووضع الفوط الجديدة الأكثر نعومة التي اشترتها قبل أيام من التنزيلات. طلبت تبخير المكان بالعود عند السادسة، ورش زواياه بعطر الزهور البيضاء المخفف. ظهرت كأنها شخصية مفتش من أفلام الكرتون تمسح فوهة فواحات العطر في الحمام بمحارم بيضاء، وتطمئن إلى خلوها من حبيبات الغبار. بدا كما لو أنها تريد لهذه الخطبة أن تحدث فعلاً. تفاجأت حين وصلت باقات زهور البيونيه التي طلبتها سلمى. أمرت المساعدات بإحضار المزهريات بأحجامها المختلفة، قصت سيقان البيونيه الطويلة لوضعها في المزهريات القصيرة، وصفتها في نصف دائرة في إحداها، بينما ملأت بها مزهريات المجلس سوداء اللون والمحفورة بثلاثة نقوش مختلفة، ووزعتها على الطاولات الجانبية التي تفصل الكراسي بعضها عن بعض. كانت قد طلبت الطعام والحلويات من أماكن جربتها سابقا، نبهت المساعدات أن يرتدين لون الزي نفسه، وأن ينقلن قفص العصافير من الصالة إلى الطابق العلوي، خشية إصابة أحد الضيوف بالحساسية، كما حدث ذات مرة.

صرفت سلمى إيما، ثم ساورها السؤال، ماذا سترتدي ماما؟ أخت خالد امرأة تقليدية، ووالدتها أنيقة، ولكنها قد ترتدي شيئاً لا يناسب. طرقت باب غرفة والديها، والدها جالس على الأريكة يتصفح تويتر في

الآيباد، ابتسم وهي تسلم عليه. بدت والدتها أكثر صلابة وصدقاً، بلا ابتسامة، وإن أثنت على تسريحة ابنتها. كان لبس والدتها معلقاً أمامها، فلم تسأل. بدا أكثر فخامة من لبسها هي، لون أخضر قوي مشغول الأطراف، بحزام سيحدد خصرها الدقيق. على الطاولة أقراط زمردية طويلة، نادراً ما ترتديها، ورثتها عن أمها، ويقال إنها لأسلاف عملوا في الذهب. تظهر النعمة على والدتها أياً كان ما ترتديه، وفي ندرة حديثها عن المال وأسعار الأشياء، رخصت أو غلت.

اتصل خالد مرتين قبل أن تنتبه. ما زال الهاتف على الهزاز، منذ الصباح. هاتفته، سألها أين هي؟ تذرّعت بأنها تتغدى، أكد أنه سيصل في السابعة والنصف.

بدأت تستعد. وضعت كريماً مرطباً على وجهها وعنقها، ثم مصحح الهالات تحت عينيها، ووزعت كريم الأساس بالفرشاة. وضعت بعض الكونتورينج، أعلى جبهتها، وعلى أرنبة أنفها وجانبيه. وضعت عدسات ملونة قبل أن تضع كحلاً ومسكارا. ثبتت مكياجها بالبودرة، ثم حددت شفاهها بلون وردي باهت ووضعت الكثير من ملمع الشفاه. ارتدت القطعة الأولى من لباسها المكون من قطعتين، ونزلت تستعرض أمام مروان. «هل رأيت أناقة ماما، لو كنت خالد بغير رأيي وبخطب الأم». ضحكت سلمى. استدرك موجعاً إياها، «حتماً ستلائمه أكثر، عمراً وتجربة». قطبت جبينها، وعادت إلى حصنها. لم تكن تعليقات مروان اليوم موجعة، أكثر من سابقاتها. كان شيئاً آخر

أحسته، ولم تضع يديها عليه بعد. فتحت زجاجة دهن العود، وضعت قطرة على سبابتها، ربتت بها على شعرها. ثم قطرة ثانية وزعتها خلف أذنيها، وعلى باطن رسغها. يصيبها بالصداع أحياناً، لكنه المعتاد في المناسبات.

بقي نصف ساعة، صلت المغرب. دق الجرس، تنفست الصعداء، أخيراً. بدا لها كل الترقب والانتظار والتوجس سخيفاً. ستنزل بعد قليل.

28

جلست أمها في الصالة، ووالدها في المجلس، بينما استقبل مروان خالد عند باب المنزل. فتحت الخادمة باب الصالة. اقتربت أم ناصر من درجات السلم السوداء، فيممت أم سلمى نحو الباب، مبتسمة في وجهها، ترحب بامرأة لا تعرف عنها شيئاً. مدت أم سلمى يمينها إلى أم ناصر التي أطلت بعينيها وجزء من وجهها لم يخفه برقع لامع سربل شفاهها وخدودها. ترتدي شيلة منقدة، وعباءة حريرية على الرأس، تغطي جسدها وتكشف من الأمام الجلابية الحريرية الزرقاء بنقوش تشبه حبات مكسرات الكاجو، مطرزة عند النحر والرسغ، وعقد ذهبي طويل يتدلى على صدرها المتهدل، ولا ينسجم مع الخواتم الماسية العديدة التي تخنق أصابعها بثقل. فاح منها خليط ثلاثة عطور قوية، من غير العود ودهنه، جعلت عيني الأم تدمعان حين قبلتها على خدها الأيمن مرة، وعلى خدها الأيسر مرتين.

أدارت والدة سلمى دفة الحديث، إذ راحت ترحب وتعزم. ثم تكلمتا عن الجو الخانق، وسألت أم ناصر أين يقضون المقيض، وإن

كانت بعض معارفها ممن يحملن اسم العائلة نفسه يقربن زوجها أم لا؟ أخذ الحوار اتجاهات عامة مسالمة، إلا الاتجاه المنتظر.

نزلت سلمى مبتسمة، سلّمت وجلست مقابل أم ناصر التي استغربت صغر سنها، مثنية على جمالها وأناقتها، ثم أكملت حديثها مع الأم، عن والدة خالد، بنت شيوخ. ضاقت سلمى بما يقال، لكن والدتها استفسرت أكثر، فهي تعرف أغلب العائلات، وربما تكون قد قابلتها. سألت أم ناصر أم سلمى عن عمرها، فأجابت بأريحية، ثم تناول الحديث بنات أم ناصر الثلاث، وكيف تخرجن وعملن مدرسات، قبل أن تتزوج اثنتان منهن، وتتفرغا للأمومة.

فجأة التفتت إلى سلمى تسألها إن كانت تعمل، فأجابتها، «أعمل في شركة خاصة». علقت الزائرة، «أبوك ما عليه قصيره، ليش تشتغلين»؟ أحست سلمى أن الحوار يدور قبل ثلاثين سنة، فتراءى لها المشهد بالأبيض والأسود. المفروض أنها في سن والدتها، لكن البون شاسع بين امرأة تبدو كغريس كيلي، وعجوز تنقصها لباقة اختيار الأسئلة.

في الغرفة الأخرى، كان الحديث أكثر رسمية ووضوحاً. ظل الوالد جالساً، حتى دخل خالد مقترباً، فوقف مرحباً. عرّف خالد بنفسه بزهو، ثم جلس وقعد مروان بجانب والده. لم يتفرع الحديث كثيراً، إذ حدد خالد أنه، كما أبلغهم مسبقاً، قد جاء إليهم طالباً القرب. قال مروان بلا مواربة، «نحن لم نسمع عنك إلا كل خير، لكن هذه الأمور تستوجب

أن تأخذ وقتها». بدت المقابلة ثقيلة رغم قصرها، وظل أبو سلمى محافظاً على ابتسامته، حتى وهو ينظر إلى ساعته السوداء الرياضية الطراز التي كانت سلمى قد اختارتها له. فهم خالد أن الزيارة انتهت، فاستأذن للمغادرة، ألح مروان عليه أن يجلس لبعض الوقت، وكذلك فعل أبوه كما هو متوقع. أحضرت الخادمة المدخن، فتناوله مروان من يدها، وقطعة عود ضخمة تغلي على الفحم، وترسل أريج أمواج تتماهى سريعاً مع ما حولها، كأشعة قمر خجول. قدم مروان المدخن إلى خالد، فتناوله ضاحكاً وهو يردد المثل الشهير، «ما بعد العود قعود».

رن هاتف أم ناصر، فردت. كان خالد، يطلب منها الخروج. استسمحت من أم سلمى وسلمى، معتذرة، قائلة العبارات المتوارثة، (يا حي شوفتكم)، ثم نهضت تاركة قطعة الماكرون الزرقاء التي قضمت جزءاً منها في الصحن.

شيعت سلمى وأمها أم ناصر حتى الباب. كانت الثلاث محملات بانطباعات لن يتشاركن فيها. زفرت سلمى زفرة ارتياح حين اختفت أم ناصر داخل سيارة خالد، ثم جلست على أحد كراسي الحديقة، ململمة وسائد الكراسي من حولها، ومتكئة عليها. رفعت عينيها إلى سماء خالية تقريباً من النجوم. اقترب مروان، فجلس إلى جانبها يخبرها بالتفاصيل التي تعرفها سلفاً. سألها: ألا تهتمين برضا بابا وماما عليك؟ ثم أخبرها أن والدها لم يرتح لخالد. «بابا لا يعطيه فرصة، لقد حكم عليه قبل مقابلته»، ردّت، «على العموم أنا من ستتزوج، لا أمي ولا أبي».

قامت وعادت إلى الصالة. كانت خالية إلا من المساعدات يرفعن الصحون والكؤوس، فيما المدخن ما زال يحرق قطعة العود التي وضعتها الأم للضيفة. اختلطت روائح العطور والعود والزهور والشموع الموزعة على الطاولات، غابة عطر غليظة خنقتها. حملت الهاتف، طالعت المكالمات التي لم ترد عليها، كانت ستا، اثنتان منها من خالد. أجابت على مكالمته الثالثة بجمل قصيرة. كانت تغصب الكلمات على الخروج من حنجرتها، لم تذيل جملها بكلمتها «غناتي».

فتحت الباب، قفزت داخل الغرفة، ثم أدارت المفتاح مرتين. أعطاها صوت المفتاح وهو يقلب أمعاء القفل، احساساً بالسيطرة على كل شيء. عزلت الكون بالقفل المدار مرتين. خلعت أقراطها وخواتمها، فكّت الحزام الذي يضغط على معدتها، لكن احساس الضغط ظل كما هو. خلعت ملابسها، كأنها كانت ترتدي شيئاً لم ترده، ووضعت قميص نوم فضفاضاً، بزهور صفراء صغيرة وأكمام قصيرة تنتهي بالدانتيل. بدت كجدة.

جلست أمام التسريحة، وضعت محلول العدسات اللاصقة على أطراف أصابعها، وأزالت العدسات وهي تنظر إلى عينيها في المرآة. اجتاحتها موجة عنيفة، فبكت. حولت الدموع وجهها إلى مسخ، وخرج الكحل من عينيها ليستقر عند زاويتي شفاهها. كرهت أن يراها والداها هكذا وكرهت أكثر أن لا يرياها. اهتز الهاتف. مسحت دموعها بكرات القطن التي صارت مزيجاً من اللون الأسود والزهري والبني المذهب.

صارت ألوان وجهها المؤقتة، ألواناً أبدية لكرات القطن. تبخرت ألوان خيالاتها التي أسبغتها على الحدث، وظل لون كئيب باهت لا يشي بشيء.

29

بدأت سلمى يوماً آخر في المكتب، وصديقاتها يلاحقنها برسالة تلو أخرى، وخالد يصبح عليها، «كيف حال خطيبتي؟». سألها مديرها عن حالها بعد أن لاحظ صمتها طوال الاجتماع، لم ينتظر إجابتها واسترسل، «هل كلمت رئيس اللجنة لإضافتي كعضو؟ تعرفين، بخبرتي سأفيدكم لتجنب الأخطاء التي تقعون فيها». فغرت فاها للحظه قبل أن تنتبه إلى حماقة عفويتها. «سأخبر بو سعيد، هو دوماً يثني عليك، وأخبرني أنكما كنتما في نفسه الصف»، قالت، فابتسم مزهوا. لم تخبره أنه حدثها عن سقوطه في الثانوية العامة مرتين، واستفساره إن كان يحضر إلى العمل وآثار السكر بادية عليه. تمنت أن لا تعرف كل هذه المعلومات عن زميل تعمل معه.

انتهى الاجتماع دون نتائج. تُذهل سلمى من قدرة أربعة موظفين على الحديث ساعتين، يقاطعون فيها بعضهم بعضاً، ثم لا يلوون على شيء. في أول وظيفة، ظنت أنهم يمثلون مقلباً عليها، لكنها الآن

تجاوزت هذا منذ زمن بعيد، وباتت خبيرة في استشراف ديناميكية الاجتماعات. ينفسون عن عقد ترسبت في الطفولة، تقول حنان.

راجعت سلمى ارتباطاتها للأسبوع، واستحسنت أن جميعها خارج المكتب حيث قد تتعرف بأشخاص تخوض معهم حوارات أكثر ذكاء. بدا اليوم فارغاً، والزمن فائضاً عن حاجتها. اتصلت بحنان تدعوها إلى الغداء، فضلت حنان أن توافيها سلمى إلى البيت، فزوجها مسافر وهي لا تحبذ ترك أبنائها مع المساعدات.

خرجت سلمى قبل انتهاء الدوام بنصف ساعة. المواقف خالية إلا من سيارات صغار الموظفين الذين يخضعون لسلطة جهاز البصمة الإقطاعي. تعاطفت معهم. في هذا الحر، من حق الجميع أن يغادر قبل انتهاء الدوام بنصف ساعة. حان الوقت لتغيير سيارتها إلى واحدة تستطيع تشغيل مكيفها عن بعد. شغلت الراديو، وصلة أم كلثوم قد بدأت. رن هاتفها. خالد ثانية، ردت. سألها أين هي وصوت الموسيقى يصل إليه. أجابته أنها في المكتب، وأن أمامها يوماً طويلاً. «سأكلمك لما أفضى غناتي». كانت كلمة التحبب الأولى والوحيدة التي قالتها لإحساسها بالذنب.

وصلت إلى منزل حنان، بدا كأنه في ملقا. دور أرضي مغلف بالطوب الأحمر، شبابيكه ملونة، قوطية الطابع، يسوره نخل اللولو المثمر بعذوق صفراء، بعضها مغلف بشبك بلاستيكي لحمايته من الطيور. هناك أيضاً نخل الخنيزي الذي تفضله سلمى، يظهر كغجرية

ترتدي حلقاً أحمر. تحب سلمى حميمية هذا البيت، من الخارج والداخل، دافئ الأركان، مع غرف حسنة التوظيف. دخلت تحمل هدية لابنة حنان التي ورثت عيوناً فاتحة صفراء وشعراً أحمر، عن جدة من شيراز.

فاجأتها الكلمة التي استقبلتها بها صديقتها، «مبروك»، صدمتها الحروف الخمسة التي انتظرتها طويلاً. استفسرت منها عن أحداث البارحة، فأخبرتها بالتفاصيل، نصحتها: «ربما أم ناصر غير اجتماعية وتنقصها اللباقة. لكن خالد، ووالدك وأمك، عداهم العيب وتصرفوا حسب الأصول». قالت سلمى: «أنت أول من يقول لي مبروك، وأبي لم يكلمني طوال الأمس، وأمي كأنها ليست في البيت». قاطعتها حنان، «أنت تبالغين، امنحيهم بعض الوقت، فالصعوبات تتذلل شيئاً فشيئاً».

تناولت سلمى الغداء، ولعبت مع الأطفال. طبخت مع صديقتها العشاء. صورتا كل ما تفعلانه وأرسلتاه إلى صديقاتهن. في السابعة والنصف مساء، وضعت حنان أبناءها الثلاثة في أسرّتهم، ومثلت مع سلمى شخصيات القصة التي قرأتاها معاً لهم.

«بداخلك أم مميزة» علقت حنان، «هل ناقشت الموضوع وخالد؟ يجب أن يكون هذا الموضوع واضحاً منذ الآن، فخالد لديه أبناء شباب». طمأنتها سلمى، «لا تقلقي، سيكون كل شيء كما أرغب». جلستا لبعض الوقت، ثم غادرت.

30

دخلت سلمى الصالة. كانت المساعدة تغير للأزهار الماء، وتضيف إليه حبوب البندول والسكر. بدت أحداث زيارة الأمس وكأنها أضغاث أحلام.

في الحمام، فتحت الصنبور لتملأ البانيو، رمت فيه قطعاً مكعبة من الأملاح المعطرة، فارت حين لمستها المياه، لتلد زهوراً مجففة وبذور لافندر غيرت لون الماء إلى الأزرق ورائحته إلى خزامى. خرجت لتعلق عباءتها. فتحت الخزانة وأخرجت ملابس داخلية وبيجامة قطنية زهرية اللون، منقطة بالأبيض. حملت كتاباً وزجاجة ماء، نزلت في الحوض، ووضعت رأسها على وسادة بلاستيكية، بعد أن خبأت شعرها في غطاء بلاستيكي.

مع عبد الملك، أطلقت أسماء أطفالهما على شوارع المدينة. مع خالد، لم يتحدثا قط عن الموضوع. يتحدث عن ابنيه بفخر، يسافر ليلتقي بكره الذي يدرس في ولاية أمريكية، بين حين وآخر، ويقرأ كل تقرير تبعثه الجامعة. لكنه لم يتحدث قط عن حلمه بإنجاب طفل أو طفلة منها.

أغمضت سلمى عينيها تستسلم لدفء الماء، غنت أغنية قديمة عادت بها إلى مراهقة سعيدة، حين كانت أكبر همومها هي، أين ستذهب للتسوق وماذا سترتدي للحفل وماذا حدث لبطل المسلسل؟ أيام الرضا تحت جناح والدتها، وثلاثية لغاتها، واللعب مع مروان.

ارتدت بيجامتها تستعد للنوم. استلقت على السرير، بعد أن وصلت الهاتف الميت بالشاحن، ونامت. كزّت على أسنانها ككل ليلة، نام جسدها، وظلت نسخة أثيرية من ذواتها تتجول في ملكوت حلقات مفرغة.

استيقظت سلمى بفكر منشغل، وألحت عليها رغبة أن تسبق الوقت. لديها اجتماع في الطرف المعاكس لمكتبها، من المدينة. صلت، وفتحت البريد. تحمد الله على خاصية تحديد موعد وصول الرسالة، وإلا اتهمت بالجنون. لا أحد يستيقظ لصلاة الفجر، ويفتح بريد العمل. لا أحد بهذا المزاج. هم جيل يصفهم بعض الوافدين إلى البلد، بالكسل، ويتهمهم أبناء جلدتهم صراحة به. أرسلت ثلاث رسائل بريدية. إلى أين أوصلها عملها الجاد؟ لا يصعد إلا القلة من المجتهدين، وفرصها كانت لتكون أفضل لو أنها مهملة. الناس يرتعبون ممن لا يشبههم، تكرر حنان. طرد موظف تعرفه من شركة، لعدم الأمانة، فتولى بعدها مباشرة، منصباً رفيعاً في أخرى.

عادت إلى النوم. استيقظت بعد ساعتين. استخدمت مكواة الشعر

لتطوع خصلاً شردتها الرطوبة. تحب أن تسدل شعرها، حين تكون خارج المكتب.

سلكت شارعاً أقل ازدحاماً ، فاستوقفتها إشارة مرور كل ثلاثة كيلومترات. كرهت أن تتأخر. لم تعتقها أي من الإشارات، لكنها مع ذلك وصلت في الوقت المحدد. كانت ورشة العمل لتصميم أنموذج موحد للبروتوكول. راقتها الفكرة. ودت لو تصمم بروتوكولاً للحديث في حرم مناطق العمل. قضت وقتاً رأته مثمراً ، وتعرفت إلى ممثلين عن شركات جديدة.

اتصل مروان يخبرها أنه وبهجت سيوافيانها على الغداء اليوم، وسألها عن جدولها. أخبرته بأنها ستكون موجودة. تذكرت هدية بهجت. حواجز لا مرئية بينهما، شعرت بحب أكبر تجاهها وهي تتخيل أجواء كمنزل حنان، وأطفالاً تقرأ لهم القصص. ستنتهي ورشة العمل بعد قليل، عزمت على الذهاب لشراء الهدية.

ذهبت إلى مركز تسوق تجد فيه أغلب الماركات. فاجأها أنها لا تعرف ما هي ماركة بهجت المفضلة، أو إن كانت حتى تهتم بالعلامات التجارية أم لا. كيف مر كل هذا الوقت دون أن تعرف؟ تجولت بين المحلات، قبل أن تستسلم وتهاتف أخاها، طلباً للمساعدة. اقترح عليها لوحة خط، فزوجته مهووسة بالخط العربي. دخلت إلى محل حيث اشترت حقيبة يد وسواراً مشغولة عليه كلمة حب.

حين ولجت إلى الصالة، وجدتهم مجتمعين حول طاولة الطعام.

انضمت إليهم، ملأت صحنها مرتين، ولم تشتك من البهارات. تحدثت بهجت عن سعادتها لأن هناك من يأكل مرتين مثلها، فمروان بدأ حمية لإغاظتها. قالت سلمى: بالأمس، كان يأكل معي برياني لحم، الساعة الخامسة، ويقول شعراً في طبخ أمي. ضربته بهجت على كتفه، «أيها الغشاش». ضحك الجميع. مضى زمن لم تضج غرفة الطعام فيه هكذا بالضحك. انتقلوا بعدها إلى الصالة. زهور البيونيه ما زالت تزيدها أناقة. صب مروان الشاي للجميع، إلا بهجت، توقفت عن شرب المنبهات منذ مدة.

قدمت سلمى الهدايا إلى بهجت التي تفاجأت، وفتحت التغليف على عجل. أعجبتها الحقيبة، وأعجبها السوار فلبسته على الفور. «ذوقك رائع»، فقال مروان، مشيراً إلى إسهامه، هي أيضاً غشت.

قضى الجمع اليوم في المنزل، وانضمت لاحقاً إليهم مريم، صديقة الأم . تحدثوا معظم الوقت عن السفر للتصييف، حتى سلمى. اتصل خالد، تشاغلت عن الرد، ثم أرسلت تعتذر إليه قبل أن تنام.

استمرت الورشة ثلاثة أيام. تعود سلمى خلالها مبكرة، تذهب للتسوق، وتحضر فيلماً، ثم تعتذر من خالد لانشغالها.

31

بدأت سلمى دوامها في المكتب بفنجان قهوة تركية، قلبته بعد احتسائه، وأبقته لأربعين ثانية قبل أن تقلبه ثانية لترى ماذا سيظهر فيه؟ شاهدت شكلاً فسرته بأنه وجه أمها باسماً ، رأت سمكة وحرفاً بدا كالسين. ظلت تستغفر لاحقاً طول اليوم، لأنها قرأت فنجانها.

اتصل خالد يخبرها بأنه سيسافر إلى ولده في أمريكا لخمسة أيام. تمنت له السلامة. ستكون المسافة بينهما أكبر، ربما أفضل، كي تفكر بوضوح. رن الهاتف، رقم أرضي لا تعرفه، لوت شفتيها، بالتأكيد بنك سيعرض عليها بطاقة ائتمانية. يجب وضع حد لهذا الازعاج. ردت «ألو»، كان بو سعيد، رئيس اللجنة. «هلا معاليك». قال لها «وعدتني برد ولم يردني حتى الآن. على العموم لديك مقابلة الأحد القادم، الساعة الثانية عشرة». لم تعرف بم ترد، قالت له «سأستخير». لم تستخر بعد في موضوع الخطبة. قررت أن تذهب. لن يعجب خالد أن تعمل بهذا القرب من بو سعيد، خاصة بعد فض الشراكة بينهما منذ وقت ليس ببعيد.

أمضت نهاية الأسبوع في بيت جدتها. اكتشفت معلبات منتهية الصلاحية. أخبرت والدتها التي حدثتها أنها اقترحت على والدها إحضارها إلى البيت، ريثما تتحسن. كلمت سلمى جدتها التي تكبر سنوات كل أسبوع، لكنها رفضت كما توقعت. غادرت منزل الجدة إلى الجمعية القريبة، تأكدت من تاريخ كل شيء، وظلت وقتاً تشرح للمساعدات كيف يتأكدن من التاريخ.

انتظرت أم سلمى أن تفتح سلمى موضوع الخطبة، وأن تعرج على حدث الخطبة الذي مر عليه بعض الوقت. بدت سلمى وكأنها غير معنية. أتُراها غيرت رأيها؟ ستنذر الذبائح إن فعلت. استفسر مروان عن خالد، المعلومة الجديدة كانت زواجه الثاني. ربما لا تعرف سلمى. لن يخبرها الآن، سينتظر أن تفتح هي الموضوع. تراكمت أحاديث لم تقل، ولم تعد سلمى تبحث في عروض الأزياء التي تحضرها عن فستان عرس، ولا في محلات المجوهرات عن دبلة.

تباعدت مكالمات خالد بسبب فارق التوقيت. ظل يرسل صور الأماكن التي يذهب مع ابنه إليها، أكثر مما يتحدث معها. سألها عن رد والدها. مرت أكثر عن عشرة أيام، ولم تجبه سلمى.

ذهبت إلى المقابلة، سلمت على مدير الموارد البشرية وعلى بوسعيد، ناولتهما نسخة عن سيرتها الذاتية. سألها مدير الموارد بعض الأسئلة، واستفسر عن طبيعة دورها في اللجنة. قال بو سعيد: حين تكون سلمى في الاجتماع، لا أحتاج إلى الحضور، فهي تديرهم

وتحقق النتائج. أخبرته عن رغبة مديرها في الانضمام إلى اللجنة. سألها هل يعرف أنه لن يستفيد وسيضطر إلى العمل؟ ابتسمت دون تعليق. الراتب مغر، لكن ساعات الدوام أطول. قلبتها في رأسها. لم يحن الوقت بعد للتغيير، لكنها لا تحبذ عملاً يتطلب أسفاراً كثيرة. سألت تحديداً ، «ما عدد مرات سفري إن قبلت بالوظيفة؟»، أجاب مدير الموارد، «هناك خفض في المصاريف التشغيلية، توقعي من 3 إلى 5 سفرات سنوية على درجة رجال الأعمال». ليس سيئاً مقارنة بما كانت تظنه.

ما أن خرجت من المقابلة حتى رن الهاتف، خالد. لم تكن قد أخبرته عن المقابلة بعد، امتقع وجهها، كأن الله يفضحها أمامه. أجابت، قال لها «افتقدتك خطيبتي». ردت عليه «ليس بعد». أثارت حنقه بردها. «سلمى، هل رفض أهلك؟» أخافها السؤال، أجابته متهربة: «لم أقل هذا». فتشت عن مخرج لها، «لم أصلي استخارة بعد». قال لها: «ظننتك لا تؤمنين بها. أقصد لا تصلينها لقراراتك». أجابته «الزواج مختلف. ليس كوظيفة أكتب استقالتي على ورقة وينتهي كل شيء». علت نبرته في حدة، «استخيري سريعاً ».

تظلمه، لكنها لم تعد ترغب في الرد على سؤاله. تتذكر التجاعيد على يد أخته، تعليقها على عملها، أبناءه الشباب، بيت حنان، عرض العمل الجديد، إجازة الصيف.

جاءتها مكالمة من مديرها، كأنه عرف بالمقابلة! أجابته، كلفها

بحضور اجتماع نيابة عنه في الغد، العاشرة في قاعة فندق ريتز كارلتون بالعاصمة، اعتذرت بسبب ارتباطات العمل. قال بلهجة آمرة: «أجّلي اجتماعاتك». «انشاء الله بوعبدالله، تم». تساءلت لماذا قد ترفض عرض الوظيفة الجديدة.

في الطريق إلى العاصمة، هالها عدد السيارات الذي يؤكد هجرة الموظفين من مدينتها إلى العاصمة. أطفأت المذياع . استطاعت أن تحسم قرار الوظيفة بسرعة، لكنها لم تحسم أمر الخطبة بعد. قبل أسابيع، أرادت خالد، خططت لحفل العرس، فما الذي يحدث لها اليوم؟ لم تعد تقارن بينه وبين عبد الملك، صارت تراه من زاوية مختلفة، وترى نفسها من زاوية جديدة. يصعب عليها تخيّله وهو يعد حليباً ويطعم طفلاً أو يلعب معه. خالد جاف. وحاد. لم تقل هذا عنه مسبقاً. عليها أن تجد مخرجاً.

أنهت سلمى اجتماعها الذي طال لثلاث ساعات، تخللتها استراحة للصلاة. شربت كوبين من القهوة، والقليل من الماء، تناولت حبة تمر، وبعض المقبلات في الاستراحة. في نهاية الاجتماع، تبادلت أرقام التواصل مع العديد ممن حضروا.

في طريق العودة، تجاوزت حدود السرعة المسموحة لتجنب الازدحام في شارع الشيخ زايد. حققت ذلك ببركة مخالفتين للسرعة، واحدة في العاصمة، والأخرى في مدينتها.

بعد وصولها البيت مباشرة، أرسلت اعتذاراً نصياً إلى خالد،

وطلبت مهلة، فأرسل إليها بسرعة، «لم أعد أثق في تأجيلك المستمر». غاصت أحشاؤها. منذ متى يعاملها بهذا الجفاء؟ لم يعد يرسل إليها الزهور، ولا الرسائل عند صلاة الفجر، ولا أمنيات لها بأحلام سعيدة. توقعت منه احتواء أكبر وهي تتذبذب في قرارها.

هاتفها خالد لاحقاً يدعوها إلى الغداء، بعد أن ظن أنه أخافها لأنه تركها بعد الخطبة مباشرة وسافر. اعتذرت بانشغالها بالعمل. هاتفتها حنان تشتكي من أنها على وشك فقد عقلها من شغب أطفالها، واقترحت غداء، ثم مشاهدة فيلم على حسابها. وافقت سلمى، كان لديها أخبار كثيرة تطلعها عليها.

اختارت حنان مطعماً ايطالياً جديداً ، «لديهم أفضل سمك سيباس في دبي». كان المطعم مزدحماً ، يجمع بين كونه مطعماً ومحلاً للتسوق. رن هاتفها. إنه خالد. ترددت قليلاً ، لن ترد. تابعت تقص على حنان أحداث المقابلة والعرض الجديد الذي تلقته. نصحتها صديقتها بالموافقة، مغمضة العينين. صمتت سلمى لثوان تفكر، فجأة لمحت خالد وهو يخرج من المكان. أكيد رآها ورأى أنها لم تجب على اتصاله. هاتفته، فلم يرد. نهضت للحاق به. يعيشان فصول مد وجزر، تهرب منه ثم تلجأ إليه، لا ترد على مكالماته لكنها تريده حولها. هبط قلبها وهي تلحق به، أرعبتها فكرة أنه لا يخرج من المطعم، بل من حياتها.

انزلق أحد رواد المطعم على الأرض. سقطت غترته وعقاله في تلك الثانية، حيث وضع أحد عمال النظافة اللوحات البلاستيكية

الصفراء. استشاط الرجل غضباً ، فأمسك بالعامل من قميصه. «أنت يا الخايس يا الغبي يا الأعمى ما تشوف الناس سايره وراده، أنا براويك يا مسود الوجه يا الهندي، والله لسفرك». وظل مطبقاً على ياقته.

لم تستطع سلمى اكمال سيرها وهي ترى الجرسونات يفشلون في التفريق بينهما. رنت في عظامها كلمات الرجل، فارت خلايا لم تعرف بوجودها قبل تلك اللحظة، فصرخت في وجهه:

- «شيل إيدك عساها الكسر».

- «سيري ولي، ولا اصفك كف، أنا بدفنه هنيه».

أمسكت بيده بكل قوتها تبعدها عن العامل، ثم زعقت بصوت لم تدر من أي حنجرة أتى:

- «إذا ريال حط يدك وألبسك قضية ما تطلع منها بسنين».

ثم التفتت إلى العامل تحدثه بالأوردية»

- «توم تيكهي؟ (هل أنت بخير)».

مي تيكهو (أنا بخير)، أجابها العامل، بينما استمر الرجل يسبها بكلام بذيء، وحارس المكان يطلب منه الخروج.

سألتها إحدى المتجمهرات «شو يخصك؟». أجابت سلمى «يخصني، كل هندي يخصني. أنا أمي هندية»، وعادت إلى الطاولة. يداها ترتجفان، تحاول أن تسيطر على أنفاسها المتلاحقة، ونبضها المتصاعد. جاء العامل يشكرها. سألته من أي منطقة هو، وهل لديه أطفال، فأجابها أنه من الجنوب، كيرلا. فتحت سلمى حقيبتها لتنقده

مبلغاً، فرفض بأنفة. قالت له: «اقبل هذه الهدية، فأنا قريبتك، والدتي من الجنوب، من مونار»، فقبل.

اتهمتها حنان بالحماقة وهي توبخها على تعريض نفسها للسب القبيح من رجل وقح. أجابت «كل شيء مصوّر، سأقوم بتأديبه. يتفرعن على إنسان بسيط ويهينه في مكان رزقه. لم أستطع التحمّل، أنا كنت أصلاً مشحونة وأنا أرى خالد وأهاتفه، ولا يرد علي».

وصلت سلمى إلى البيت، بعد أن قدمت بلاغاً في مكتب الأمن. اتجهت إلى حيث جلست والدتها تتابع أحد مسلسلاتها المفضلة أمام التلفزيون، فارتمت قربها، ملقية برأسها على كتفها. «ماما، أريد جلاب جامون وراسملاي اللذين كنت تعدّينهما يوم الجمعة، حين أكون بعيدة، في بيت جدتي». ضحكت والدتها، وحين لاحظت أرنبة أنفها المحمرة، سألتها:

- «ما بك؟»

- «لا شيء مامي جان، لا شيء، تابعي مسلسلك، وسأبقى هنا بقربك».

أغمضت سلمى عينيها وراحت تتنفس على مهل. منذ دهر، لم تشعر بمثل هذه الخفة، بمثل هذا الارتياح. لا تعرف ما الذي حدث، لكن أزمنة كثيرة تجتمع الآن تحت هدبيها. عادت إليها صورة العامل الهندي، أحست، وهي تصرخ في الرجل العنصريّ اللئيم، أنها تصرخ في بنات عمها، وفي جدتها، وفي صديقات الطفولة، وفي عبدالملك،

وفي كل شخص قريب أو بعيد، جرحها، وحتى في سلمى التي قبلت وتحمّلت هذا كله. وحين أبعدت يد الرجل عن العامل الهندي، كانت في الحقيقة تبعد أيادي كل هؤلاء عنها وعن أمّها.

- تمت -

بدرية الشامسي

ذوات أخرى

بدرية الشامسي، كاتبة وشاعرة، إماراتية من إمارة دبي، تحمل درجة البكالوريوس في علوم الحاسب الآلي، وخريجة برنامج القيادات الإعلامية 2007.

فازت مجموعتها القصصية بالمركز الأول في الدورة السادسة عن فئة القصة القصيرة من وزارة الشباب وتنمية المجتمع عام 2014.

نشر لها: "الأسماك الطائرة"، فئة أدب الطفل عن دار الهدهد للنشر والتوزيع.

"ذوات أخرى" هي تجربتها الروائية الأولى مع برنامج دبي الدولي للكتابة.

استيقظت مبكرا يوم الجمعة بسبب منبه الهاتف الذي نسيت إطفاءه، عدلت درجة حرارة التكييف بعد أن ضايقتها برودته، أغمضت عينيها في استسلام لرائحة صبغة الشعر التي لا تزال طازجة. ظلت على هذا الوضع لبعض الوقت. تناولت الهاتف فوجدت رسائل من حنان وميثاء وخالد ومروان وزوجته، علقت يبدو أن الجميع كانوا سهرانين أمس. ارتدت خفا واستعدت للصلاة. دعت طويلا في السجود أن ييسر الله خطبتها وزواجها من خالد، نزلت إلى الدور الأرضي، كان الجميع نائمين حتى المساعدات المنزليات، صبت لنفسها كأس ماء، فتحت التلفاز، كان وقت إعادة برامج لا تتابعها، تناولت إحدى المجلات الأجنبية التي تهواها والدتها، تصفحتها، شاهدت إعلاناً لقطعة مجوهرات أعجبتها كهدية لبهجت، تذكرت أنها لم تهنئ بهجت بعد، فبعثت لها بتهنئة، أغلقت التلفاز وصعدت إلى غرفتها، عادت إلى السرير تحاول النوم، أرادت أن تؤجل بداية اليوم الذي سينتهي نهاية غير عادية فغفت نحو ساعتين، قبل أن تفتح عينيها بتكاسل، نظرت إلى هاتفها، كان خالد قد أرسل فيلما مضحكا، فكتبت إليه، يبدو أنني سأتزوج مهرجا.

ISBN 978-9948-18-890-2
9 789948 188902

ISBN 978-614-432-441-7
9 786144 324417

Qindeel | قنديل
للطباعة والنشر والتوزيع
Printing, Publishing, and Distribution
info@qindeel.ae
www.qindeel.ae